صورةُ (الْمُستَثْنىٰ) بينَ شعرِ الجاهليةِ والاسلامِ

(دراسة بلاغية ناقدة)

إعداد

د / أحمد أحمد على عطوان

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بالقاهرة-جامعة الأزهر

١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

ض

صورةُ (الْمُستَنْبِحِ) بين شعرِ الجاهليةِ والاسلامِ(دراسة بلاغية ناقدة)

د. أحمد أحمد على عطوان

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد-كلية اللغة العربية بالقاهرة-جامعة الأزهر-جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني:

Drahmed.3twan@gmail.com

ملخص البحث:

يتناول البحث صورة " المُسْتَنْبِح " فىٰ الشعر العربىٰ منذ عصر الجاهلية حتىٰ عصر الإسلام ، ويُبْرِزُ : كيف تنامت تلك الصورة التىٰ تُعَبر عن الشهامة العربية ، من خلال ذلك " المُسْتَنْبِح " وقد رَصَد البحثُ مراحِلَ تَطُّور تلك الصورة . منذ أن كانت بيتين من الشعر إلىٰ أن صارت قصيدة كاملة .

الكلمات المفتاحية : (المستنبح – طعام الضيف – الكلب – القِدْر – النار)

The image of the (the swimmer) between the poetry of ignorance and Islam (critical rhetorical study)

Dr. Ahmed Ahmed Ali Atwan
Assistant Professor in the Department of Rhetoric and Criticism-Faculty of Arabic Language in Cairo - Al-Azhar University-Arab Republic ofEgypt.
E-mail: Drahmed.3twan@gmail.com

Abstract:

Description of the Prophet between the poetry of ignorance and Islam

The research deals with the image of "Al-Mustansbah" in Arabic poetry from the era of Jahiliyyah until the era of Islam, and highlights: How did that image, which expresses the Arab magnanimity, grow through that “the mustbabah,” and the research observed the stages of the development of that image. Since it was two verses of poetry until it became a complete poem.

Key words: (Mustebbi - guest food - dog - pot – fire)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين .

ثم أما بعد

فإن من صور الأخلاق العربية الكريمة المأثورة صورة المستنبح، التي قد تناولها الشعر العربي في قديم الجاهلية وحديثها، وفي شعر المخضرمين، وفي شعر الإسلاميين بداية من صدر الإسلام وانتهاء بأوائل العصر العباسي الأول. فكيف تناول الشعر العربي هذه الصورة وكيف عَبَّر عنها علىٰ مدىٰ عصور الشعر المختلفة وكيف تناسلت خيوط هذه الصورة، وتوالدت حتىٰ صارت هذه الصورة وحدها تشكل قصيدة كاملة عند واحد من الشعراء الكبار أمثال أبي فراس همام بن غالب الفرزدق؟! يتناول البحثُ تلك الصورة بتحليلها في مستوياتها المختلفة منذ أن بدأ الكلام عنها مُبْتَسرًا في بيتين إلىٰ أن تنامت وشكلت بُنْيَانًا ضخما مُمْتَلِئًا بعرائس الشعر وبنات أفكار الخيال. وقبل التطواف في هذا، نَعْرِفُ ما هو المستنبح وما هي تلك العادة الجاهلية القديمة التي تمثل التمسك بالحفاظ علىٰ النفس من ناحية المستنبح وتمثل الشهامة العربية والنجدة البدوية من ناحية من يُجِيبُه ويُؤْيه، ويُهْرَعُ إلىٰ إبله، فينحر له ويطعمه ويسقيه .

أهمية الموضوع:

تنبع أهمية الموضوع في استجلاء تلك الصورة ورصدها من بدايتها منذ أن كانت بيتين من الشعر إلا أن صارت بعد تفريع معانيها وتشقيق جوانبها والاحتفال بها = بنيانًا ضخمًا يجاوز العشرين بيتًا.

أسباب اختيار الموضوع:

١- تقريب الدراسة البلاغية من مجالات الشعر العربي الرصين والخروج بالأدوات البلاغية إلىٰ مجال التطبيق.

٢- طرافة الموضوع وجدته.

الدراسات السابقة:

هذا الموضوع لم يحظ بعناية الدارسين حيث أنني لم أجد علىٰ قدر ما بحثت أحداً قد تناوله بالدراسة البلاغية.

منهج البحث:

وقد اصطنع البحث المنهج الاستقرائي في تتبع صورة المستنبح من بدايتها إلىٰ نهايتها، ثم المنهج التحليلي في تناول الشعر.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مطالب:

أما المقدمة فقد تناولت بيان الموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، وذكر المنهج والخطة.

وأما التمهيد: فقد بين معنىٰ(مصطلح المستنبح)وما يرادفه من كلمات تعبر عنه، ثم المطلب الأول في صورة المستنبح في شعر الجاهلية، والمطلب الثاني في صورة المستنبح في شعر المخضرمين، والمطلب الثالث والأخير في صورة المستنبح في شعر الإسلاميين.

أسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يتقبل مني هذا العمل وأن يتغشَّاهُ بالقبول والتأييد، ويُضفِيَ عليه من محاسن القبول والبهاء ما يجعله يُحلَّىٰ به جِيدٌ بَعْد جيد . وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

التمهيد

بيان المصطلح

المستنبح – المستكلب – المهتلك

يقول ياقوت الحموي(ت ٦٠٦ هـ): قال علىٰ بن عيسىٰ الربعي: استدعاني عضدا الدولة ليلة وبين يديه " الحماسة" فوضع يده علىٰ باب الأضياف وقال: ما تقول في هذه الأبيات:

ومستنبحٍ بَاتَ الصَّدَىٰ يَسْتَتِيهُهُ إلىٰ كلِ صوتٍ وهْوَ في الرَّحْلِ جَانِحٌ

فقلت: هذا قول عتبة بن بجير الحارثي، ومعناه: أن العرب كانت إذا ضلت في سفر وصارت بحيث تظن أنها قريبة من حلة نبحت لتسمعها الكلاب فتجيبها فيعرفون به موضع القوم فيقصدونه، ويستضيفون، فيضافون. فقال: إن قوما يتشبهون بالكلاب حتىٰ يضافوا لقوم أدنياء النفوس؛ فوجمت بين يديه وأنا واقف وهو ينظر إليّ . وكان من عادته أنه ما دام ينظر إلىٰ أحدنا لم يزل واقفا بين يديه حتىٰ يرد طرفه. قال: ثم فكر، فقال: لا، بل إن أقواما يستنبحون في هذا القفر والمكان الجدب فيستضيفون فيضافون مع الإقلال والعدم لقوم كرام، وأمر لي بجائزة وانصرفت[1]"

ويقول العلامة أحمد تيمور باشا(١٩٣٠-١٨٧١م): " ومن أبيات المعاني قول عتيبة بن بجير المازلي من شعر الحماسة: ومستنبح بات الصدىٰ.... الأبيات

وهذا مبني علىٰ عادة، وهي : أن الرجل من العرب كان إذا ضل، وتحير في الليل فلم يدر : أين البيوت، أخرج صوته علىٰ مثل النباح، فتسمعه الكلاب،

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٨٣٠ .

وتظنه كلبا فتنبح، فيستدل بنباحها ، ويهتدي إلىٰ المكان .... وفي معنىٰ: استنبح أيضا: كَلَب الرجل يَكْلِب من باب ضرب، واستكلب. أنشد ابن سيدة في المخصص علىٰ الأول:

وداع دعا بعدما أقفرت عليه البلاد ولم يكْلِبِ

وأنشد صاحب اللسان علىٰ الثاني: ونَبْح الكلابِ لمُسْتَكْلِبِ"[1]

يقول ابن منظور في لسان العرب: "كَلب الرجل يَكْلِب ، واستكلب إذا كان في قفر فينبح لتسمعه الكلاب، فينبح، فيستدل بها .... "[2].

وفي معنىٰ المستنبح أيضا:(المُهْتَلِك)، قال العلامة الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ): في شرح القاموس: " وقال الليث: المُهْتَلِك : الهالك، من لا هم له إلا أن يتضيفه الناس، يظل نهاره فإذا جاء الليل أسرع إلىٰ من يكفله، خوف الهلاك، لا يتمالك دونه، وأنشد لأبي خِراش:

إلىٰ بيته يأوي الغريب إذا شتا ومهتلك بالىٰ الدراسين عائل"[3]

والذي دعاني إلىٰ القطع بأن المهتلك في معنىٰ " المستنبح" أن بيت (أبىٰ خراش) قد روىٰ في السيرة النبوية:(ومستنبح بالي الدراسين عائل)ومضىٰ عليها (السهيلي) في الروض الأنف.

---

(١) أبيات العادات (بحث) نشر في مجلة المقتبس ١ / ٩ / ١٩١١م عدد ٦٧ .

(٢) لسان العرب (كلب)

(٣) تاج العروس (هلك) .

الشعراء الجاهليون:

١ - قال عوف بن الأحوص الكلابي[١]

(١) هو عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر واسم أبيه " ربيعة" و " الأحوص" لقبه . وأصل الحوص: ضيق في العين وكان الأحوص سيدًا في قومه وذا رأيهم، حضر يوم شعب جبلة . من عظام أيام العرب، وهو يومئذ شيخ كبير قد وقع حاجباه علىٰ عينيه، وقد ترك الغزو، غير أنه يدبر أمر الناس، وكان مجربا حازمًا ميمون النقيبة. وحضر معه ابنه عوف، وكان من زعمائهم وقوادهم . وكان يوم جبلة قبل الهجرة بأكثر من ٧٠ سنة١٠هـ من هامش تحقيق المفضليات. مجـ١٧٣ يقول المزرباني في ترجمته : (عوف) بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقول :

ومستنبحٍ يبغىٰ المبيت ودونه ∴ من الليل بابا ظُلمة وستُورُها

رفعتُ له ناري فلما اهتدىٰ بها ∴ زجرْت كلابي أن يهرَّ عَقُورها

فبات وقد أسرىٰ من الليل عُقْبة ∴ بليلة صدقٍ غاب عنها شرورها

إذا قيلت العوراء وَلَّيْتُ سمعها ∴ سواي ولم أسأل بها ما دَبيرها

يطلق العقور علىٰ السباع، لا علىٰ الناس. وقوله: وقد أسرىٰ، أي: وإن كان أسرىٰ عُقبه مكروهة.

وله في حرب الفجار، وكان قيس بن زهير جاره، فرآه يدب في فساد أمر بني عامر، فقال:

إني وقيسا كالمسمن كلبه ∴ فتخدشه أنيابه وأظافره

وله :

أَبَىٰ حسبي وفاضلتي ومجدي ∴ وإيثاري المكارم والمساعي

١ – وَمُسْـتَنْبِحٍ يَخْشَـىٰ القَواءَ، وَدُوَنُه مِنَ اللَّيْلِ بَابَا ظُلْمَةٍ وسُـتُورُهَا
٢ – رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَلمَّا اهتَدَىٰ لَهَا زَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهِرَّ عَقُورُهَا
٣ – فَلا تَسْـأَلِينِي واسـأَلِي عَنْ خَلِيقَتِي إذا رَدَّعَا فِي القِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُها
٤ – وَكَـانُوا قُعُودًا حَوْلَهـا يَرْقُبُونهـا وكانت فَتاةُ الحَيِّ ممن يُنِيرها
٥ – تَـرَىٰ أَنَّ قِـدْرِي لا تَـزالُ كَـأَنَّـهـا لِذِي الفَرْوَةِ المَقْرُورِ أُمٌّ يَزُورُهَا
٦ – مُبَرَّزَةً لَا يُجْعَـلُ السِّـتْرُ دُونَهـا إِذَا أُخْمِدَ النِّيرانُ لَاحَ بَشِـيرُهَا
٧ – إِذَا الشَّوْلُ رَاحَتْ ثُمَّ لَمْ تَفِد لَحْمَها بِأَلْبَانِها ذاقَ السِّـنَانَ عَقِيرُها

عوف بن الأحوص، شـاعر جاهلي قديم، وشـعره هذا يعتبر علىٰ قدر ما بحثت من أقدم النصـوص التي تتكلم عن المسـتنبح، وقد جاء الكلام في البيتين الأولين ثم أتبعا بما هو من معناهما بسـبيل، وهو الكلام عن خليقته، أي طبيعته عند اشتداد الزمان، وعموم القحط والجدب:

١ – وَمُسْتَنْبِحٍ يَخْشَىٰ القَواءَ[1]، وَدُوَنُه مِنَ اللَّيْلِ بَابَا ظُلْمَةٍ وسُـتُورُهَا
٢ – رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَلمَّا اهتَدَىٰ لَهَا زَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهِرَّ عَقُورُهَا

وقـــومٌ هـــم أحلُّونـــي وحلُّـــوا ∴ مـــن العليـــا بمرتقـــب يفـــــاع
وكنت إذا مُنِيت بخصْـــم ســـوء ∴ دلفْـــت لـــــه بداهيـــــةٍ وَقَـــاعِ

أهـ معجم الشعراء ١٢٤/ ١٢٥ . انظر الحيوان ٥ / ١٣٦ .

(١) القواء: الخالي من الأرض، أي يخشىٰ الهلاك في القواء. والقواء: ذهاب الزاد وهو مشتق من هذه الأرض، وهي القِيّ؛ وهو من قوله عز وجل :"متاعا للمقويين" ، وهم الذين ذهب زادهم.

قوله : " بابا ظلمة وستورها"، أي بابان من الظلمة: باب بعد باب، ثم فظع بذكر الستور. وقال أحمد بن عبيد: بابا ظلمة؛ يعنىٰ أول الليل وأخره. والستور: الظلمة التي بين أول الليل وآخره، وهي بين البابين رفعت : جواب قوله: ومستنبح. قال الأصمعي: لم يُجِدْ في وصف كلابه؛ لأنه لو كان الضيفان يكثرون إتيانه أنست بهم كلابه. والجيد ما قاله ابن هرمة :

وإذا تنور طارق مستنبح نبحت فدلته علىٰ كلابي

فعوين يستعجلنه فلقينه يضربنه بشرا شر الأذناب

عرفان أني سوف أضرب عبطة دم بكرة معصوبه أو ناب[1]

يتسم هذا النص بالإيجاز، فلم يصف المستنبح إلا بوصفين؛ أنه يخشىٰ القواء أي الهلاك؛ وأنه: يحجزه الظلام الشديد، وفي قوله القواء مجاز مرسل علاقته المحلية حين أطلق المحل وأراد الحال، فأطلق الأرض(القواء) وأراد ما يَحُلُّ به فيها وهو الهلاك؛ ثم كَنَّىٰ عن اشتداد الظلمة بأن شبهها بمكان معتم يحجزه بابان ثم رشح الاستعارة بقوله: " وستورها " . أما ما انتقد به الأصمعي الشعر من أنه لم يُجِد في وصف كلابه فهذا شهادة له لا عليه؛ لأن الشعر جاهلي معرق في الجاهلية، وهذا المعنىٰ الساذج في وصف كلابه كان في بداية أمر الكلام عن الكلاب ومعاملتها مع الضيف، ثم بعد ذلك طُرِّق الأسلوب بعد أن هذبته ألسنة الشعراء ووصلوا به إلىٰ ما كان من استحسان شعر ابن هرمة وما يماثله . مع أن المرزوقي قد ردَّ هذا النقد حين

(١) شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ٦٥١ .

بين أنه قد يكون من الكلاب في هذه الساعة التي نبح فيها المستنبح ما يكون حارسا للأنعام فهو لا يألف البيوت ولا الضيفان.

٣- فَلا تَسْأَلِينِي واسأَلي عَنْ خَليقَتِي إذا رَدَّ عَافِي القِدْرِ مَنْ يَسْتَعيرُها

" قال الأصمعي : كانوا في الجدب إذا استعار أحدهم قدرًا رد فيها بعض ما يطبخ وسمىٰ ذلك عافيٰ القِدْر؛ لأنه لا يَجْهَد أهلَها مقداره؛ بل كان يأتي عفوا.

يقول : لا تسألِيني، ولا تَرْجعي إِلَّىٰ في تعرُّف أخلاقي عند تغير الزمان، وسلىٰ غيري، فإن شهادة الغير أوقع في النفس"[1] انتقل الكلام من الحديث عن المستنبح إلىٰ الحديث عن أخلاق الشاعر وافتخاره بجوده عند شدة الزمان وكَنَىٰ عن الأوقات الصعبة بهذه الصورة التي ترىٰ فيها القدر يُضَّن بما يبقىٰ فيها فلا تستعار؛ لأن القليل الذي في قعرها مما هو في شدة الحاجة إليه. وهذه الكناية عن كلب الزمان لا تكفي الشاعر في بيان المعنىٰ فاحتاج إلىٰ ذكر كناية أخرىٰ فقال :

٤- وَكَانُوا قُعُودًا حَوْلَها يَرْقُبُونها وكانت فَتاةُ الحَيِّ ممن يُنِيرها

أرانا بهذه الصورة، صورة القدر التي جلس حولها الرجال يرقبونها من شدة الجَهْد، ينتظرون نضجها، وفي هذا المشهد ترىٰ مع وجود جمع الرجال فتاة الحيّ، ليست أي فتاة بل هي فتاة الحىٰ التي كانت لا يراها ولا يطمع في رؤيتها أحد جلست توقد علىٰ القدر، ولا تستحيىٰ، ولا تخجل من وجودها

(١) شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ٦٥٣ .

بحضـرة الرجال، وكأن شـدة الجوع قد أنسـتها ما هي وما يجب عليها من التصوُّن والاختباء.

٥- تَرَىٰ أَنَّ قِدْرِي لا تَزالُ كَأَنَّها لِذِي الفَرْوَةِ المَقْرُورِ أُمٌّ يَزُورُهَا

" قوله: " ترىٰ أن قدري " جواب الأمر في قوله: واسـألي عن خليقتي . " والمعنىٰ أن قدره لا تحجب عن الجائع المضـرور، والمتغشـىٰ بالفروة ، المقرور، لكنها كالمباح يأخذ منها من شاء ". ويتسم هذا الشعر بميزة وثاقة ارتباط الكلام أوله بأخره، كأنه كلمة واحدة، تأمل كيف ربط الكلام عن القدر في البيت الثالث بالكلام عنه في البيت الخامس الذي شـبه فيه القدر بالأم الرؤوم التي تعطف علىٰ ولدها فلا تمنعه من حاجة يريدها، تأمل كيف صَيَّر الشعرُ القدرَ أمًّا حنونا قد احتوت هذا الذي أصابه الجوع والبرد فأعطته من جزيل كرمها ما يُردُّ عنه ما هو فيه!! ونلمس في تشبيه القدر بالأم المزورة. وقوله: " لاتزال " يرينا اسـتمرارية احتضـان هذه القدر لكل من يرد عليها فهي:

٦- مُبَرَّزَةً لَا يُجْعَلُ السِّتْرُ دُونَها إِذَا أُخْمِدَ النِّيرانُ لَاحَ بَشِيرُهَا

يقول التبريزي: " إن نصبت " مبرزة" كان حالا للقدر، وإن رفعتها كانت خبر مبتدأ محذوف"(١) والأحق عندي في مذاق الكلام أن تكون حالاً متصلة اشـد الاتصـال بالبيت السـابق والذوق يأبىٰ أن تكون خبر مبتدأ محذوف لأن الكلام ليس في قيمة معناه ما يسـتحق أن يُسْـتَأنف له كلام جديد علىٰ عادتهم

(١) شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ٦٥٥

في المدح . فالأَبرُّ بالكلام هنا أن تكون حالا مندمجة في اللفظ والمعنىٰ مع البيت السابق. وَصَف القِدْرَ بعد تشبيهها بالأم بأنها ظاهرة للعيان غير محجوبة ثم بين الظرفَ بقوله: " إذا أُخمد النيرانُ لاح بشيرها" كَنَّىٰ أيضا عن القحط الذي يَدْهَم العربي الكريم فيحمله علىٰ أن يُخْمِد النيران حتىٰ لا يراها أحد فيقصدَه وليس عنده، ما يقوم به لنفسه فضلا عن الضيف، في هذا الوقت الشديد علىٰ الناس = هذه القدر ظاهرة قد لاح بشيرها . يقصد قد ظهرت نارها وارتفعت عالية تبشر من يراها بالقرىٰ والكرم وفي كلمة " بَشِيرُها" من كريم المعنىٰ ما لا يستطيع القلم أن يعبر عنه فهي كلمة مفعمة بالأمل! ثم يختم الكلام عن كرمه بقوله :

٧- إِذَا الشَّوْلُ(١) رَاحَتْ ثُمَّ لَمْ تَفِد لَحْمَها بِأَلْبَانِها ذاقَ السِّنَانَ عَقِيرُها

يقول: إذا لم يكن فيها لبن عقرتها " قوله الشول كناية عن موصوف كما رأيت فهي الإبل التي ارتفع لبنها، يقول إذا رجعت من مرعاها وليس فيها لبن تفدي به نفسها من الذبح عند حضور الضيف فهي عقيرة لا محالة وكأنه يؤكد أنه الأكثر عنده الذبح وليس سقىٰ اللبن؛ لأنه بَيَّن من أول الأمر أنها شول " أي لا لبن فيها، ثم استعار الفداء لإدرار اللبن لأنه ينجيها من الذبح كالفدية تنجي من القتل وفي قوله " عقيرها" مجاز مرسل علاقته المآلية فهي قبل العقر ليست عقيرة وإنما تكونه بعد العقر. ثم ينظر الإشارة إلىٰ سرعة الجزر وحدة شبا السنان في قوله : ذاق السنان" أي ذاق ألمه ، أطلق السنان وأراد ما يترتب عليه من الألم .

(١)" الشول: الإبل التي شولت ألبانها، أي ارتفعت

٢- وقال شريح بن الأحوص[١]

١- وَمُسْـتَنْبِحٍ يَبْغِي المَبِيتَ وَدُونَهُ مِنَ اللَّيْلِ سِـجْفَا[٢] ظُلْمَةٍ وكُسُـورُها

٢- رَفَعْتُ له نَارِي، فَلَّما اهْتَدىٰ بِها زَجَـرْتُ كِـلَابي أَنْ يَـهِـرَّ عَـقُـورُهـا

٣- فَبَاتَ وَ إِن أَسْرَىٰ مِنَ اللَّيْلِ عُقْبَةً بِلَيْلَةِ صِـدْقٍ غَـابَ عَنْهَا شُـرُورُها

لما استعار السجف لتراكم الظلمة استعار الكسور لها أيضا، كأنه جعل الليلة كالبيت لظلامها وقد أرخىٰ سـجفاه وأُلْبِسَ كِسـراه، فأظلم داخله. وجواب " رب" قوله: " رفعت له ناري " والواو من قوله " ودونه" واو الحال وقوله " فلما اهتدىٰ بها " يريد لما رفعت النار فأبصرها وأقبل نحوىٰ منعت كلابي من أن يهر في وجهه عقورها . والعقور، يريد به السـيئة الخلق منها ، المولعة بالعقر... " سـرىٰ عقبة من الليل" أي طائفة، وانتصـب " عقبة" علىٰ الظرف، وأصلها أن يتعاقب اثنان علىٰ البعير، فإذا ركب أحدهما مشـىٰ صـاحبه، ثم كثر اسـتعماله فأُجْرِىٰ مجرىٰ النوْبَةِ والفُرصـة.. وقال

(١) هو شـاعر من شـعراء الجاهلية، وأمير من أمرائها، وسـيد من سـاداتها. وكان أبوه الأحوص رئيس بنىٰ عامر يوم رحرحان الثاني، وهو يوم لبني عامر بن صعصعة علىٰ بني تميم وكان سببه أن الحارث بن ظالم قتل خالد بن جعفر بن كلاب ، ثم هرب ، فـأتىٰ زُرَارة بن عـدس من بنىٰ تميم، فـأقـام عنـده فخرج الأحوص بن جعفر هو وعشـيرته ثائرًا بأخيه فالتقوا برحرحان وانهزم بنو تميم وأسـر يومئذ معبد بن زُرارة أخو حاجب بن زرارة رئيس بني تميم وكان شريح ابنه رئيس الخيل التي خرجت في طلب الحارث من ظالم ١٠هـ شرح الحماسة للتبريزي ٢ / ٣٢٩ .

(٢) " السجف: الستر، وتكسر السين منه وتفتح، والكسور: جمع الكسر، وهو جانب البيت.

الخليل: العقبة فرسخان، وهما يتعاقبان الركوب بينها .. يريد: رب مستضيف بالنباح يطلب لنفسه مكانا يبيت فيه، وقد سقط عنه كلف السير، وأسباب الجَهْد، وحجز بينه وبين الليل سجفا ظلمة وكسورها" قد أججت النار وزدت في إشعالها فلما أبصرها وقصدني زجرت كلابي ومنعتها من أن يهر في وجهه عقورها، فبات بعد إعياء سير عقبة من الليل بليلة صدق، والليلة الصدق هي الليلة الممدوحة بما فيها من راحة تنفي عنها أي ذم، وليلة الصدق مقابلة ليلة السوء، أي المليئة بما يسوء من شر .

" فإن قيل : ولم جعل في كلابه العقور ، حتىٰ احتاج إلىٰ زجره عن ضيفه؟ قلت: كأنه كان في الكلاب ما لم يكن يلزم الفناء، وإنما يكون مع الراعي في السرح للحفظ؛ فاتفق أن حضر مع كلاب الحىٰ ، فلذلك احتاج إلىٰ زجره[1]" هكذا تكلم الإمام المرزوقي ليرد علىٰ كلام الأصمعي الذي لم يُجَوِّد شعر عوف بن الأحوص أخي شريح هذا الذي هو صاحب هذا الشعر.

ويؤكد كلام الإمام المرزوقي واستنتاجه صياغة البيت حيث قال: " عقورها" فجعل العقور كلبا من الكلاب وليست كلها كذلك، ولو كان المعنىٰ علىٰ حد ما فهمه الأصمعي من أنه ليس مألفا للضيفان لقال من أن تهره كلابي. ولم يقصر الأمر علىٰ عقورها.

الملاحظ أنه وصف المستنبح بـــ (ينبغي المبيت)، (دونه من الليل ظلمة شديدة)، (بات بليلة صدق غاب عنها شرورها).

ويلاحظ تكرار البيت الثاني، وكأنه شعر واحد . لشاعر واحد .

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي مجـ١ ١٧٠٥ الحماسية (٧٥٢) بتصرف .

هذا المستنبح ليس كمثل المار " يخشىٰ القواء " وإنما هو يريد إكمال ليله ولكنه يمنعه من ذلك " شدة الظلمة " فقوله " ودونه من الليل" يعنىٰ يمنعه من إكمال سرىٰ الليل شدة الظلمة المشبهة بالبيت المكسور بالستائر فليس فيه بصيص من نور . هو نفس تشبيه أخيه عوف. وقد فارق شعرُ شريح شعرَ عوف أخيه بأنه قد أجمل ما حدث مع الضيف في الليلة وكنىٰ عن كرمه بأنه بات بليلة صدق غاب عنها شرورها. وترك لنا تخيَّل ما أحاط به الضيف من كرم أزال عنه شرور سرىٰ عقبة ليل مظلم

وقوله " نارىٰ " فيه مجاز مرسل حيث أطلق النار وأراد ما يلزمها من الاشتعال والضياء .

٣- قال معقر الأزدي [١]

١- أَلَا مَنْ لِعيْنٍ قَـدْ نَـآهـا حَمِيمُهَـا وَأَرَّقَهَـا بَعْـدَ المَنَـامِ هُمُومُهَـا[٢]

٢- وَبَاتَتْ لَها نَفْسَـانِ شَـتَّىٰ هَوَاهُمَا فَنَفْسٌ تُعَزِّيهَـا وَنَفْسٌ تَلُومُهُمـا

٣- وَمُسْـتَنْبِحٍ بَعْـدَ العَشَـاءِ دَعَوْتُهُ عَلَىٰ سَـاعَةٍ مِنْ سَـمْعَةٍ يَسْـتَدِيمُهَا

٤- دَعَـا دَعوَةً مِنْ بَعْـدِ أَوَّلِ هَجْعَـةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ الظَّلْمَاءُ خُوصٌ نُجُومُهَا

---

(١) هو: مُعَقِّر البارقي، قيل اسمه (عمرو) بن سفيان بن خِمار بن الحارث بن أوس، وبارق من الأزد. وقيل: اسمه سفيان بن أوس بن حمار، وهو جاهلي سُمِّي مُعَقِّرًا بقوله في قصيدته المشهورة :

لها نَاهِضٌ في الوكْرِ قد مَهَّدَتْ له ∴ كما مَهَّدَتْ للبَعْلِ حَسْنَاءَ عَاقِـرُ

وفيها يقول :

فجئنا إلـىٰ جمـع كـأن زُهَـاءَه ∴ جَرادٌ- هَفا من هَبْوةٍ- مُتَطايـرُ

تُهَيِّبُك الأسفارَ من خشيةِ الردىٰ ∴ وكـم قد رأينا من رَدٍ لا يُسَافِـرُ

وخبَّرهـا الـوَّرادُ أن ليس بينهـا ∴ وبين قُرىٰ نجرانَ والدربِ كَافِرُ

فأَلْقَتْ عَصَاها واستقَّربِهَا النَّوىٰ ∴ كما قَـرَّعَيْنًا بالإيَـابِ المُسَافِـرُ

أنشدت هذا البيتَ عائشةُ – رضىٰ الله عنها – لما بلغها موت علي بن أبي طالب – رضىٰ الله عنه – أهـ معجم الشعراء / ٩ .

(٢) روىٰ هذه الأبيات منسوبةً لمعقر الأرزدي كتابُ الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ١ / ٧٤ للخالدين . وقد روىٰ الشريف المرتضىٰ في الأمالي البيت الأول والثاني وروايته (فباتت) وقال : وقال الممزّق العبدي وتروىٰ لمعقِّر بن حمار الباقي. الأمالي ١ / ٣٢٥ .

٥- رَفَعْتُ لَهُ بِالْكَفِّ نَارًا يشُبُّها عَلَىٰ المَجْدِ مَعْرُوفٌ بِها مَا يَرِيُمهَا

٦- وَقُمْتُ إِلَىٰ البَرْكِ الهَوَاجِدِ فَاتَّقَتْ مَرَابيعُ أَمْثَالُ الْجَرَاثِيمِ كُومُها

هذا هو النص الثالث من نصوص شعر الجاهلية في تصوير المستنبح، وأول ملاحظة في شعر معقر: الحديث عن نأي الحبيب قبل الكلام عن المستنبح. فبدأ بقوله :

١- أَلَا مَنْ لِعيْنٍ قَدْ نَآها حَمِيمُهَا وَأَرَّقَهَا بَعْدَ المَنَامِ هُمُومُهَا

في قوله " عين" مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق العين وأراد صاحبها. وإذا كانت العين قد أطلقت بعد ذلك علىٰ " الجاسوس " لأنها أهم ما يميز الجاسوس، أو قل لا يكون عمله إلا من خلال عينه؛ فهي أهم جزء فيه لما أطلق عليه، فإن معقرًا جعل العين مجازًا هنا عن صاحبها لأن المعنىٰ الذي يقوله لا يظهر أثره أكثر ما يظهر إلا في العين، ففي العين يظهر أثر السهر والأرق والهم. وقوله : "نآها" مُضَمَّن معنىٰ الفراق، لأن النأي يعني البعد والنأي يتعدىٰ بمن قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الأنعام:٢٦].

ولكن لما كان النأي قد يكون مع القرب والاتصال مع وجود الرحلة والانفصال أراد أن يبين أنه نأي فراق وشقاق فضمنه معنىٰ الفراق وعدىٰ الفعل بنفسه كما يعدىٰ " فارق " وفي الكلام توجع يستشعر من خلال هذا الاستفهام في البيت. وكم في قوله " حميمها" من رقة ولطف يناسب النسيب، وقوله " المنام" مصدر ميمي يعني به وقت عموم النوم للناس، يقول : في الوقت الذي هجع فيه الناس وناموا هذه العين مؤرقة لم تذق طعم النوم بسبب هذا الفراق.

ثم جاء البيت الثاني يبين كيف كانت الهموم يقول:

٢- وَبَاتَتْ لَها نَفْسَانِ شَتَّىٰ هَوَاهُمَا فَنَفْسٌ[1] تُعَزِّيهَا وَنَفْسٌ تَلُومُهُما

يقول: هو بات يصارع إرادتين متضادتين فنفس تقول له: هون عليك ولا تخش شيئا وسوف يتصل الود إن شاء الله وتظفر بهذا الحميم، فتعزيه وتسليه، وهذه هي العاطفة، ونفس أخرىٰ أو قل: إرادة أخرىٰ توبخ وتلوم، وتقول له: مثلك يجب أن لا يُشْغَل بمثل هذه البطالات؛ لأنك أكبر من ذلك، وتلك هي القوة العقلانية المفكرة.

وبعد هذا التقديم كأنه جنح إلىٰ رأي العقل وبدأ يذكر موجبات الفضل وأولها الكرم والشهامة فذكر المستنبح :

٣- وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الْعَشاءِ دَعَوْتُهُ عَلَىٰ سَاعَةٍ مِنْ سَمْعَةٍ يَسْتَدِيمُهَا

٤- دَعَا دَعوَةً مِنْ بَعْدِ أَوَّلِ هَجْعَةٍ مِنَ الَّلَيْلِ وَ الَّظْلَماءُ خُوصٌ نُجُومُهَا

٥- رَفَعْتُ لَهُ بِالْكَفِّ نَارًا يشبُّها عَلَىٰ المَجُدِ مَعْرُوفٌ بِها مَا يَرِيُمهَا

هذا المستنبح عند مُعِّقر ، لم يُوصَف بما وصف به عند عوف وشريح، ولكن معقرا ركز علىٰ الظرف الزماني والمكاني فقوله: بعد العشاء.. علىٰ ساعة من سمعة يستديمها يصف أنَّ الوقت هادئ جدًا وهذا المستنبح يدعو بمعنىٰ ينبح، ثم يستسمع يطلب بسمعه أَيَّ رد يَرِدُ عليه ويستديم فعل ذلك، فهو ينبح ثم ينصت ويتسمع وهكذا، ومعنىٰ دعوتَه سيفسره في البيت الخامس .

(١)النفس ههنا الإرادة، من قولهم: نفس فلان في كذا، أي إرادته؛ أمالىٰ المرتضىٰ١ / ٣٢٤.

ثم يوضح الظرف الزماني مرة أخرىٰ فيقول: دعا دعوة من بعد أول هجعة من الليل" الوقت قد أتىٰ علىٰ جميع الناس وغلبهم بالنوم فلا يتنبه لهذا الداعي أحد خاصة في هذا الظرف المكاني الذي هو :" والظلماء خوص نجومها "[1] يعنىٰ أن نجومها لا تكاد ترىٰ فهي غائرة، وهذا كناية عن شدة الظلمة لفقدان نور النجوم- الحديث عن الظلمة هنا ليست فيه مبالغة كمثل ما مر وإنما فقط غارت النجوم! ثم يأتي ويفسر: كيف أنه قال: " دعوته" في البيت الثالث فيقول :

٥- رَفَعْتُ لَهُ بِالْكَفِّ نَارًا يشبُّها عَلَىٰ المَجْدِ مَعْرُوفٌ بِها مَا يَرِيُمهَا

يعني أنه حينما سمع صوت المستنبح رفع له إلخ أي زاد في إشعال النار وتأجيجها ولم يكتف بذلك بل جعل يأخذ بطرف عود متقد ويلوح له به في الليل ويرفعه عاليا لكي يراه، ثم نكر للإشارة إلىٰ تعظيمها ثم وصف تلك النار بأنها يَشُبُّها علىٰ المجد" علىٰ بمعنىٰ اللام أي لأجل تحصيل المجد " معروف بها" الذي يشب النار هو الشخص الذي هو مُعَقِّر ولكنه قال معروف بها فكنىٰ عنه ولم يذكر الشخص وحول الأسلوب إلىٰ الالتفات من التكلم إلىٰ الغيبة " يشبها علىٰ المجد معروف بها لا يريمها " هل يقصد أن الشخص الذي يشب النار معروف بإيقاد النار دائما في حَلَك الليالي لجذب الضالين التائهين، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه؟ أم أنه يريد أن الذي يشب النار هو المعروف الذي هو شيء المستحسن في العرف، أي الذي هو ضد المنكر، فأطلق المعروف بمعنىٰ الشيء الحسن في العرف

(١) الخَوَصُ، محركة: غؤور العين، وضيقها وصغرها، ومعنىٰ خوص نجومها.

وأراد نفسه وأن هذا المعروف رابط علىٰ النار لا يبرحها ثم يحول الأسلوب من الغيبة إلىٰ التكلم مرة أخرىٰ فيقول:

٦- وَقُمْتُ إِلَىٰ البَرْكِ الهَوَاجِدِ فَاتَّقَتْ مَرَابِيعُ أَمْثَالُ الْجَرَاثِيمِ كُومُها

بعد ان رَحَّب بضيفه قام إلىٰ الإبل الهواجد في البرك:[1].

معنىٰ البيت يقول: قمت إلىٰ جماعة الإبل، لكي أنحر إحداها ، فصارت تتقيني، وذلك بأن تدفع إلىٰ إحداها والأخريات يحتمين بها وهذه الإبل التي تتقيني عظيمات الأجسام والأسنمة تُشْبِهُ في ضخامتها الأماكن المرتفعة من الأرض، التي هي الجراثيم. الغرض وصف الإبل بالضخامة والعظم حتىٰ صارت تشبه هذه الأماكن في عظمها . والغرض الإشارة إلىٰ كرمه وأنه قام إلىٰ الإبل جميعها وكلها مختار ليختار أفضلها.

المهم أن الشاعر الجاهلي هذا قد جاء شعره مثل شعر الشاعرين الماضيين من حيث الإيجاز في الكلام عن المستنبح، والذي زاد عنده الكلام عن القيام لنحر ما يستجاد من الإبل الضخمة .

(١)هي جماعة الإبل الباركة، الهواجد أي الساكنة النائمة ، و " مرابيع" جمع " مرباع" وهي الناقة التي من شأنها أن تضع ولدها في الربيع، وهو المحمود من انتاج." كومها" الكوم: الإبل العظام الأسنمة، وقال الخليل: الكوم: العِظَمُ في كل شيء، و"الجراثيم": أمان مرتفعة عن الأرض مجتمعة من طين وتراب؛ تاج العروس(ج ر ث م) .

الشعراء المخضرمون :

١ - أَبُو خِرَاشٍ الْهُذَلِيُّ[١]:

قال ابن هِشام: حدَثنِي أَبُو عُبَيْدَةَ، قال : أُسِرَ زُهَيْرُ بْنُ العَجْوَةِ الهُذَلِيُّ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فكُتِّفَ، فرآه جَمِيلُ بنُ مَعْمَرٍ الجُمَحِيُّ فقالَ له: أَنْتَ المَاشِي لَنَا بالمغَايظِ، فَضَربَ عُنُقَه، فَقَال أَبُو خِرَشٍ الْهُذَلِيُّ يَرْثِيهِ، وَكَان ابْنَ عمِّه:-

١ - عَجَّفَ أَضْيَافِي جَمِيلُ بْن مَعْمَرٍ ... بِذِي فَجَرٍ تَأْوِي إِلَيْهِ الْأَرَامِلُ

٢ - طَوِيلُ نِجَادِ السَّيْفِ، لَيْسَ بِجَيْدَرٍ ... إِذَا اهْتَزَّ وَاسْتَرْخَتْ عَلَيْهِ الحَمَائِلُ

٣ - تَكَادُ يَدَاهُ تُسْلِمَانِ إِزَارَهُ ... مِنَ الجُودِ لَمَّا أَذْلَقَتْهُ الشَّمَائِلُ

٤ - إِلَىٰ بِيْتِهِ يَأْوِي الضَّرِيكُ إِذَا شَتَا ... وَمُسْتَنْبِحٌ بَالِي الدَّرِيسْينِ عَائِلُ

٥ - تَرَوَّحَ مَقْرُورًا وَهَبَّتْ عَشِيَّةً ... لَهَا حَدَبٌ تَحْتَثُّهُ فَيُوَائِلُ

٦ - فَمَا بَالُ أَهْلِ الدَّارِ لَمْ يَتَصَدَّعُوا ... وَقَدْ بَانَ مِنْهَا اللَّوْذَعِيُّ الحُلَاحِلُ

٧ - فَأُقْسِمُ لَوْ لَاقَيْتَهُ غَيْرَ مُوثَقٍ ... لَأَبَكَ بِالنَّعْفِ الضِّبَاعُ الجَيَائِلُ

٨ - وَإِنَّكَ لَوْ وَاجَهْتَهُ، أَوْ لَقِيتَهُ ... فَنَازَلْتَهُ أَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يُنَازِلُ

---

(١) هو : أبو خِرَاشٍ، اسمُه : خُوَيْلدُ بنُ مُرَّة، أحد بني قِرْد . واسم قِرْدٍ: عمرُو بنَ مُعاوية بن تَميم بن سَعد بن هُذَيل بنُ مدركة بن إلياس بن مُضر بن نِزَار شاعرٌ فَحْلٌ من شُعراء هُذيل المَذْكورين الفُصَحاء. مُخَضْرَمٌ، أَدركَ الجاهليَّة والاسلاكَ فأسلمَ. وعاش بعد النَّبي – ﷺ – ، مُدَّةً، ومات في خِلافَةِ عُمَر بنِ الخطَّاب – رَضِي الله عنه–، نَهَشَتْه أَفْعىٰ فمات، وكان مِمَّن يَعْدُو فيَسْبِق الخَيل في غارات قَوْمه وحُرُوبِهم١٠هـ الأغاني ٢٤ / ٨٤٢٩ .

٩- لَظَلَّ جَمِيلٌ أَفحَشَ الْقَوْمِ صِـرْعَةً وَلكِنَّ قِرْنَ الظَّهْرِ لِلْمَرْءِ شَـاغِلُ[١]

جاء الحديث عن المستنبح في شعر أبي خراش في بيتين فقط من قصيدته التي يرثىٰ فيها ابن عمه زهير بن العجوة – وجاء الحديث عن المستنبح عرضا عند الحديث عن مناقب هذا المرثي، بعد أن توجع وتفجع علىٰ مقتل زهير، وكيف أن جميل بن معمر الجمحي القاتل، بقتله زهيرًا قد عجف أضياف أبىٰ خراش أي أهزلهم؛ لأن زهيرًا هو الذي كان يقوم بمؤونه من كان يضيفه أبو خراش فقد قتل جميل زهيرًا فعجف الأضياف بقتل ذي فَجرَ[٢]، وفي الكلام مجاز عقلي علاقته السببية؛ لأن جميلا القاتل، لم يعجف الأضياف، ولكنه كان سببا في ذلك بقتله رب ضيافتهم، وقوله: "بذي فجر" كناية عن موصوف، الذي هو زهير؛ ثم يصف زهيراً بأنه كان سيدًا من السادات، طويل القامة، مديد الجسم فارعه، وكنَّىٰ عن ذلك بطول النجاد، ثم عَرَّض بغيره بقوله : ليس بجيدر" ليس بقصير، وأنه كان إذا اهتز استرخت عليه الحمائل، حمائل السيف كناية عن طوله وقصر الحمائل عنه، والكناية عن الطول كناية عن السيادة، ثم يتكلم عن جوده بقوله :

٣- تَكَادُ يَدَاهُ تُسْلِمَانِ إِزَارَهُ مِنَ الجُودِ لَمَّا أَذْلَفَتْهُ الشَّمَائِلُ

(١) سيرة النبي – ﷺ–: أبو محمد عبد الملك بن هشام ٤/ ١١٤ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة التجارية الكبرىٰ – طبعة سنة ١٩٣٧م انظر في ورود هذه الخبر مع الشعر: الأغاني ٢٤/ ٨٤٣٨ + شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٢١ .

(٢) والفَجرَ هنا بمعنىٰ الجود الواسع، والكرم، من التفجر في الخير.

وفي هذا البيت اضطربت كلمات المعلقين علىٰ القصيدة في مصادرها ولم يهتد إلىٰ حل معناها غير محمد محيىٰ الدين عبد الحميد في تعليقه علىٰ سيرة النبي - ﷺ- فقال: " الجود هنا : الجوع، كما قال الخشنىٰ ، ويحتمل أن يكون باقيا علىٰ أصله.

أزلقته (هكذا بالزاىٰ – والصواب أنه الذال) : أدركته وحددت ناظره، والشمائل جمع شمال، وهي الطبع"[1] يقول أبو خراش: إن هذا المرثي وصل من فرط جوده وكرمه، ونوازع عروق الطباع الجيدة في أصله " أنه تكاد يداه تسلمان إزاره" عند فقدان ما يجود به من المال، وذلك لما فعلته به الطبائع الكريمة الموروثة من آبائه وأجداده، فقد حددت خاطره، وأجادت طبعه، فلم يكن إلا فياضًا .

ثم يسترسل في صفة جوده، ويذكر أنه كان إلىٰ بيته يأوي الضريك (وهو الفقير، البائس، السيء الحال)[2] إذا شتا أي إذا دخل في زمن الشتاء، وجاء البرد بما فيه، وما يتبعه، ثم يذكر أنه كان يلجأ إليه المستنبح :

٤ – إِلَىٰ بِيْتِهِ يَأْوِي الضَّرِيكُ إِذَا شَتَا وَمُسْتَنْبِحٌ بَالِي الدَّرِيَسْينِ عَائِلُ

رواية شرح أشعار الهذليين " ومُهْتَلِكٌ بالىٰ الدريسين عائل"

أما رواية السيرة فقد صرحت بذكر المستنبح ، والروايتان بمعنىٰ واحد، فرواية السيرة تبين المراد من رواية شرح أشعار الهذليين:" المهتلك " ، والذي يقوىٰ هذا ما يرد بعد ذلك من وصف المستنبح بعد ذلك من أنه : "بالىٰ الدريسين" والدريس: الثوب الخَلَق، وأراد بالدريسين: إزاره ورداءه،

---

(١) سيرة النبي ٤ / ١١٥ .

(٢) تاج العروس (ضرك) .

والعائل: الفقير، ثم وصفه بعد ذلك بأنه أي المستنبح :"تروح مقرورًا" قد راح إلىٰ بيت زهير وقد أصابه القُرُّ ، ثم وصفه بعد ذلك بأنه قد جاء في عشية هبت ولها حَدَب، والحدب: شدة البرد وقسوته، هذا البرد مع ما فيه من الريح يكاد يحتثه، ويروي: " يجتثه" بالجيم، ومعناه تقتلعه فيوائل، أي فهو يطلب موئلا (ملجأ)، ثم ينتقل إلىٰ غرضه من القصيدة، وهو بكاء زهير هذا ويتعجب: كيف لم يتصدع أهل داره(قومه) ويتفرقوا عنها، وقد بان منها اللوذعي الحلاحل: السيد الكريم المطاع . ثم يتوجه إلىٰ قاتله مخاطبا إياه قائلا له مقسما: بأنه لو لاقاه، وهو غير موثق أي مكتف، يعني حرًّا طليقا: " لأبك بالنعف الضباع الجيائل " كناية عن مقتله؛ لأن الضباع تألف أكل جثث القتلىٰ، ويقسم أيضا: إنك لو واجهته، وجئته حرًّا طليقا من وجهه عند النزال، أو لو كنت ممن ينازل، وهذه سخرية منه، ثم يأتي بجواب القسم ملتفتا من الخطاب إلىٰ الغيبة

٩- لَظَلَّ جَمِيلٌ أَفحَشَ الْقَوْمِ صِرْعَةً وَلكِنَّ قِرْنَ الظَّهْرِ لِلْمَرْءِ شَاغِلُ

يعنىٰ أنك قد قتلته غِيلة، فكنت قرن ظهر، وهو الذي يأتي المقاتل من خلفه ليغتاله .

الشعراء المخضرمون:

٢- وقال عمرو بن الأهتم السعدي(١):

١- أَلَا طَرَقَتْ أَسْمَاءُ وَهْي طَرُوقُ ... وَبَانَتْ، عَلَىٰ أَنَّ الخَيَالَ يَشُوقُ

٢- بِحَاحَةِ مَحزُونٍ، كَأَنَّ فُؤَادَهُ ... جَنَاحٌ وَهَىٰ عَظْمَاهُ فَهْوَ خَفُوقُ

٣- وَهَانَ عَلَىٰ أَسْماءَ أَنْ شَطَّتِ النَّوىٰ ... يَحِنُّ إِلَيْهَا وَالِهٌ وَيَتُوقُ

٤- ذَرِينِي؛ فَإِنَّ الشُّحَّ يَا أُمَّ هَيْثَمٍ ... لِصَالِحِ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقُ

٥- ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنَّنِي ... علىٰ الحَسَبِ الزَّاكي الرَّفِيعِ شَفِيقُ

٦- وَإِنِي كَرِيمٌ، ذُو عِيالٍ تُهِمُّنِي ... نَوائِبُ يَغْشَىٰ رُزْؤُهَا وحُقُوقُ

٧- وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الهدُوءِ دَعَوْتُهُ ... وقد حانَ من نَجْمِ الشِّتَاءِ خُفُوقُ

٨- يُعالِجُ عِرْنِينًا مِنَ اللَّيْلِ بَارِدًا ... تَلُفُّ رِيَاحٌ ثَوْبَهُ وبُرُوقُ

٩- تَأَلَّقُ فِي عَيْنٍ من المُزْنِ وَادِقٍ ... لَهُ هَيْدَبٌ دَانِي السَّحابِ دَفُوقُ

---

(١) هو عمرو بن الأهتم . والأهتم : أبوه، اسمه سنان بن خالد بن سمىٰ . ويقال : سنان بن سمي بن خالد بن مِنْقر بن عبيد بن الحارث. وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . يقال: إن قيس بن عاصم ضربه بقوس، فهتم فاه، فسمىٰ الأهتم... قدم علىٰ النبي - ﷺ- وافدًا في وجوه قومه من بني تميم فأسلم ، وذلك في سنة تسع من الهجرة ... وكان خطيبا جميلا، يدعىٰ" المُكَحَّل" لجماله، بليغا، شاعرًا، محسنا. يقال إن شعره كان حللًا منشرة، وكان شريفا في قومه، أهـ الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة ١ / ٢٨٤. وانظر أيضًا ترجمته في الشعر والشعراء:٦١٤ والاستيعاب (١١٦٣) والإصابة ٤ / ٦٠٤ وأسد الغابة ٤ / ٨٨ .

١٠ – أَضَفْتُ فَلَمْ أَفْحُشْ عَلَيهِ وَلَمْ أَقُلْ ... لِأَحْرِمَهُ إِنَّ المكان يَضِيقُ

١١ – وقلتُ لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا ... فَهَذا مَبِيتٌ صالحٌ وَصَدِيقُ

١٢ – وَقُمْتُ إِلَىٰ البَرْكِ الهَوَاجِدِ فَاتَّقَتْ ... مَقَاحِيدُ كُومٌ كالمَجَادِلِ رُوقُ

١٣ – بِأَدْمَاءَ مِرْبَاعِ النِّتَاجِ كَأَنَّهَا ... إِذَا عَرَضَتْ دُونَ العِشَارِ فَنِيقُ

١٤ – بضَرْبَةِ سَاقٍ أَوْ بِنَجْلَاءَ ثَرَّةٍ ... لها مِنْ أَمَامِ المِنْكَبَيْنِ فَتِيقُ

١٥ – وَقَامَ إِلَيْهَا الجَازِرَانِ فَأَوْفَدا ... يُطِيرَانِ عَنْهَما الجِلْدَ وهو تَفُوقُ

١٦ – فَجُرَّ إِلَيْنَا ضَرْعُهَا وسَنَامُهَا ... وأَزْهَرُ يَحْبُو لِلقِيَامِ عَتِيقُ

١٧ – بَقِيرٌ جَلَا بالسَّيْفِ عنه غِشَاءَهُ ... أَخٌ بِإِخَاءِ الصالحينَ رَفِيقُ

١٨ – وَبَاتَ لَنَا مِنْهَا وَلِلضَّيْفِ مَوْهِنًا ... شِوَاء سَمِينٌ زَاهِقٌ وَ غَبُوقُ

١٩ – وَبَاتَ لَهُ دُونَ الصَّبَا وَهْيَ قَرَّةٌ ... لِحَافٌ وَمَصْقُولُ الْكِسَاءِ رَقِيقُ

٢٠ – وكُلُّ كَرِيمٍ يَتَّقِي الذَّمَ بالقِرِي ... ولِلخَيْرِ بين الصَّالحينَ طَرِيقُ

٢١ – لعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأَهْلِها ... ولكنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

٢٢ – نَمَتْنِي عُرُوقٌ مِنْ زُرَارَةَ لِلْعُلَا ... وَمِنْ فَدَكيٍّ وَ الْأَشَدِّ عُرُوقُ

٢٣ – مَكَارِمُ تَجْعَلْنَ الْفَتَىٰ فِي أَرُومةٍ ... يَفَاعٍ وَبَعْضُ الوالِدِينَ دَقِيقُ[1]

---

(١)دعوته : أوقدت له نارًا يستضئ بها، وحان: دنا للغروب، فهو يخفق في الأفق للسقوط . والنجم: هاهنا الثريا، وذلك أنه يخفق للغروب جوفَ الليل في الشتاء، وطلوعها في ذلك الوقت وهي: الذراع، والفترة ، والطَّرْف، والجَبْهَة . وتسمىٰ قلب نجم الشتاء ، ومن أسجاعهم: إذا طلع القَلْبُ جاء الشتاء كالكلب. ويقولون للمستنبح: نَسيبُ العُقْد ، كأنه يناسب الكلاب بما يحكي من النباح. والعُقْد: الكلاب لانعقاد أذنابها.

الجديد في هذا الشـــعر تقديم مقدمة غزلية تتحدث عن طيف الخيال، ثم الحديث عن أم هيثم التي تلومه علىٰ إنفاقه ماله في الكرم والســـخاء ويأمرها أن تكون عونـًا له ليحافظ علىٰ الحسب الرفيع، فإنه كريم ذو عيال وله نوائب تغشـــاه وحقوق، ومن هذه الحقوق إجابة المســـتنبح الذي جاء الحديث عنه في القصيدة من البيت السابع إلىٰ البيت العشرين، فتلك أربعة عشر بيتا بدأت بقوله :

٧- وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الهدُوءِ دَعَوْتُهُ وقد حانَ من نَجْمِ السمَاءَ خُفُوقُ[1]

يذكر البيت وقت مجئ المستنبح وقد كنىٰ عنه بشيئين الأول بعد الهدوء والثاني وقد حان من نجم الشتاء خفوق، والخفوق السقوط والميل . وهاتان كنايتان عن الظرف الأولىٰ بينت الســـاعة التي قد نام فيها الناس وأخذهم النوم وهذا يعني أنه منتبه للحفاظ علىٰ الحســـب الزكي الرفيع بل هو جالس يحرس لعل طارقا من أصـــحاب الحقوق يرد عليه، والكناية الثانية تعين الوقت وهو آخر الليل عند قرب حلول الفجر وقد دنا نجم الثريا من السقوط والغروب . هي ســـاعة لا يســـتيقظ فيها أحد، ولكن صـــاحبنا جالس يراقب فلما أحس نَبْأَة صوت المستنبح أسرع فزاد في اشعال ناره حتىٰ يهتدي إليه فما كان حال هذا المستنبح :

وقوله: بعد الهدوء، أي بعد سكون الناس بمأخذ النوم فيهم، شرح المفضليات ١ / ٤٥٠- ٤٦٣ .

(١) رجعنا في الشرح وحل الغريب والمعنىٰ إلىٰ شرح المفضليات للتبريزي ١/ ٤٥٣

٨- يُعالِجُ عِرْنِينًا مِنَ اللَّيْلِ بَارِدًا تَلُفُّ رِيَاحٌ ثَوْبَهُ وبُرُوقُ[١]

أعطانا بهذا البيت محتوىٰ حالة المستنبح فقال إنه يعاني من البرد، وليس أي برد وإنما هو بدايته وشدته في الحال التي تحيط به الرياح فتلف ثوبه ليرينا شدتها مع اصطحابها بالبروق. وصف كامل للحال.

٩- تَأَلَّقُ فِي عَيْنٍ من المُزْنِ وَادِقٍ لَهُ هَيْدَبٌ دَانِي السَّحابِ دَفُوقُ[٢]

هذا بقية وصف حال المستنبح بين فيه أنه كان يسير في جوٍّ من شدة الريح والظلام وسطوع البرق وهذا الوصف للبرق بأنه يتألق، أي يبرق في مطر دائم لا يقلع غزير في سحاب قريب من الأرض. تم الوصف للمستنبح.

ثم يتحول الحديث عن ما يجب أن يقوم به مستقبل المستنبح :

١٠- أَضَفْتُ فَلَمْ أَفْحُشْ عَلَيهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرِمَهُ إِنَّ المكان يَضِيقُ

١١- وقلتُ لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذا مَبِيتٌ صالحٌ وَصَدِيقُ

وصف طريقة استقباله والترحيب به ، ولم يتعلل بضيق المكان ليصرفه عن المبيت: أهلا وسهلا ومرحبا؛ فهذا مبيت صالح وصديق، أي حللت

(١) أصل العرنين: الأنف، وما تقدم من الوجه. وارتفع من الأرض، واستعاره لليل، كما استعير في الأشراف والسادة فقيل: عرانين الناس. وعطف البروق علىٰ الرياح، وإن لم يشاركها في لف الثوب ، كقول الآخر:

يا ليت بعلك قد غدا متقلدا سيفا ورمحا

(٢) أصل التألق التبرق والتكشف. والأصل تتألق، فحذف إحدىٰ التاءين استثقالا لاجتماعهما . والعين : مطر أيام لا يقلع . والمزن: السحاب. والوادق: الداني من الأرض. والهيدب : فيعل من الهُدْب، وهو ما يُرىٰ من الرَّباب دوين السحاب.

أهلا لا غرباء، وسهلا من المقام لا حزنا، ورحبا من الساحات لا ضيفا. هذه البشاشة من أهم واجبات الضيافة.

١٢ - وَقُمْتُ إِلَىٰ البَرْكِ الهَوَاجِدِ فَاتَّقَتْ مَقَاحِيدُ كُومٌ كالمَجَادِلِ رُوقُ[١]

يعني أنه حينما تهيأ للقيام بحق الضيافة وأحست به الإبل والإبل ضخام عظام الأجسام والأسنمة جعلت بينها وبينه إحداهن التي سيصفها في البيت القادم: وشبه هذه الإبل في ضخامتها بالمجادل أي القصور، وإذا كانت هذه الابل مع ضخامتها وعظمها قد اتقت الذبح بأن احتمت بإحداهن جعلتها بينها وبين من يريد الجزر للضيف. فما صفة هذه التي اتقته بها الإبل؟:

١٣ - بِأَدْمَاءَ مِرْبَاعِ النِّتَاجِ كَأَنَّهَا إِذَا عَرَضَتْ دُونَ العِشَارِ فَنِيقُ[٢]

يقول إن الناقة التي جعلتها الإبل بينها وبين الشاعر إذا رأتها العين وهي معترضة دون الإبل يقول إنها فحل عظيم ضخم. القصد إلىٰ أن الشاعر يريد أنه قد اختار خيار لإكرام الضيف .

---

(١) البرك: إبل الحي كلهم. والهواجد: النيام. والهاجد من الأضداد: يكون النائم ويكون المتيقظ .. ومعنىٰ اتقت، أي جعلت بيني وبينها . والمقاحيد: العظام الأجسام والأسنمة. والواحد مقحاد. والقحدة : أصل السنام . والكوم : جمع أكوم ، وكوماء وهي المشرفة . والمجادل : القصور، شبهها بها لعظم خلقها . والروق: جمع رائقة، وهي المعجبة حسنا .

(٢) ويروي: إذا أعرضت، أي اتقت الإبلُ الهواجدُ بناقة أدماء، وهي البيضاء. ومرباع النتاج: تُنْتَج في أول الربيع، وذلك أقوىٰ لولدها ؛ لأن الربيع يمتد لها، فترعاه أمهاتُها، فلا يأتيها الضيف حتىٰ تقوىٰ.. وقوله: إذا أعرضَتْ: يريد إذا أبدت عُرْضها . ويُرْوَىٰ إذا عرضَتْ دُونَ العِشار، أي إذا اجتمعت النوق واعترضت دون اللاتي أتىٰ عليها عشرة أشهر من حملها كانت عند نظر الناظر إليها في مرأي العين كأنها فحل عظيم.

١٤ – بضَـرْبَةِ سَـاقٍ أَوْ بِنَجْلَاءَ ثَرَّةٍ لهـا مِنْ أَمَـامِ اَلـمْنِكَبَيْنِ فَتِيقُ

الباء في : بضـربة تتعلق بقوله: وقمت إلىٰ البرك؛ أي عمدت عَرْقَبَتَهَا أو نحرها بطعنة واسـعة غزيرة الدم. قد فتقت لبتها . وارتفع " فتيق" إن شـئت بالظرف " من أمام " وإن شئت بالابتداء و " لها " خبره.

ما القصـد من وصـف الضـربة أو الطعنة؟ القصـد من ذلك بيان مدىٰ هِمَّته وعزمه في إكرام الضيف وسرعة تلبية حق الضيافة بقوة ومضاء.

١٥ – وَقَامَ إِلَيْهَا الجَازِرَانِ فَأَوْفَدا يُطِيرَانِ عَنْهَما الجِلْدَ وهو تَفُوقُ[١]

يقول : إنه قام بنحر الناقة، وهذا شـرف يتولاه رب الضـيف بنفسـه، ثم قام إليها الجازران ليُهَيِّئاها للطبخ. والغرض من ذكر الجازرين الإشـارة إلىٰ أنه سـيد مخدوم مكفي، له من يقوم بمزاولة أعماله – الفائدة الإشـارة إلىٰ سيادته.

١٦ – فَجُرَّ إِلَيْنَا ضَرْعُهَا وسَنَامُهَا وأَزْهَرُ يَحْبُو للقِيَامِ عَتِيقُ[٢]

(١) قوله: فأوفدا، أي فارتفعا عليها لعظمها . يطيران عنها الجلد: يَسْلُخَانها . وقوله الجازران: يريد السالخ والناحر، وثنَّاه علىٰ عادتهم في تثنيه المستعان به في المهمات. كقولهم الحالبان : للبائن (وهو الذي يمسك العلبة عن يمين الناقة وهي تُحْلب) والمستعلي(وهو الذي يحلب الناقة عن شمالها) ؛ وموضع " يطيران " نصب علىٰ الحال للجازرين . وقوله : " وهي تفوق " حال للجزور، أي تخرج روحها علىٰ هيئة الفواق (الفواق شخوص الريح من الصدر).

(٢) أزهر: يعني ولدها الجنين، ووصفه بأنه " عتيق": كريم، ليبين أنه لم يضن بها، وإن كانت من كرائمها.

يقول جلست مع الضيف ننتظر نضج الطعام، حتىٰ جيء إلينا بضرعها وسنامها حالة كون الجنين الذي خرج من بطن الذبيحة يحبو للقيام. الغرض الكناية عن كرمه الذي أداه إلىٰ أن ينحر العُشَراءْ. ولم يبخل بها .

١٧ - بَقِيرٌ جَلَا بالسَّيْفِ عنه غِشَاءَهُ أَخٌ بِإِخَاءِ الصالحينَ رَفِيقُ

١٨ - وَبَاتَ لَنَا مِنْهَا وَلِلضَّيْفِ مَوْهِنًا شِوَاء سَمِينٌ زَاهِقٌ وَ غَبُوقُ

أصل البقر: الشق، ثم يقال : تبقر الرجل في الأهل والمال، أي توسع ، ومنه البقير في الملابس.. ويعني بالأخ: الرفيق نديما له نهض معه في الاحتشاد وإكرام الضيف . موهنا : بعد ساعة من الليل، وكذلك الوّهْن، ويقال: أوهن أي صار في تلك الساعة، كما يقال: أصبح وأمسىٰ. والزاهق : الذي ليس بعد سمنه سمن ، ثم استأنف الغبوق، فقال : وبات لنا غبوق؛ وهو شرب العشىٰ . البقير هو الذي يحل لحمة بذبح أمه[1]، فقوله بقير " بدل من قوله: " وأزهر يحبو للقيام عتيق "، هذا البقير قام إليه ليزيل عنه جلده أخ بإخاء الصالحين رفيق، ثم يقول بتنا بأهنأ ليلة بين الشواء السمين والغبوق.

١٩ - وَبَاتَ لَهُ دُونَ الصَّبَا وَهْي قَرَّةٌ لِحَافٌ وَمَصْقُولُ الْكِسَاءِ رَقِيقُ

أي صار للضيف في مدافعة أذىٰ الريح، وهي باردة، لحاف، أي دثار يلتحف به وكساء مختار دقيق، نهاية مطاف ذكر المستنبح أطعمه وسقاه وعن البرد وقاه بلحاف ومصقول الكساء رقيق . ثم يأتي البيت الأخير وفيه نوع من أنواع البديع وهو إرسال المثل، وهو " عبارة عن أن يأتي الشاعر في بعض بيت بما يجري مجرىٰ المثل، من حكمة أو نعت أو غير ذلك مما يحسن التمثل به كقوله تعالىٰ: " ليس لها من دون الله كاشفة" ومما جاء في

(١) تاج العروس (حلل) .

السنة الشريفة، قوله – ﷺ – : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ... ومن أمثلته في الشعر قول زهير:

وهل ينبت الخطي إلا وشيجة وتغرس إلا في منابتها النخل[1]

أقول إن البيت الأخير في الحديث عن المستنبح يشبه إرسال المثل لما فيه من الحكمة:

٢٠- وكُلُّ كَرِيمٍ يَتَّقِي الذَّمَ بالقَرِي وِلِلخَيْرِ بين الصَّالحينَ طَرِيقُ

٢١- لعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأَهْلِها ولكنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

كلام هو النهاية في الحكمة والأدب يعني به أن كل كريم الأخلاق والأعراق لابد من أن يصون عرضه بالقيام بحق الضيافة وقرىٰ الضيف، وللخير بين صالحي الأخلاق والأعراق طريق مسلوكة معروفة، لا ينكرها إلا لئيم؛ ثم إن البلاد تسع الكثير من الخلق ولا تضيق بأهلها ولكن التي تضيق ولا تتحمل الخَلْقَ وما طبعوا عليه من الأخلاق السيئة هي صدور الرجال وعدم تحملهم . ولغرابة هذا المعنىٰ جاء به في أسلوب مؤكد بالقسم.

والخلاصة أن الكلام أتىٰ عن المستنبح بعد مقدمة غزلية ذكر فيها طيف الخيال، وذكر لوم أم الهيثم؛ ثم ذكر المستنبح ووصف حالة الجو من الريح والبرق والمطر وبعد ذلك ذكر الترحيب بالضيف واستقباله بالبشاشة، والإسراع إلىٰ النحر ثم وصف ما يقوم بنحره، وأنه خيار من خيار، وبعد ذلك ذكر الجلوس مع الضيف والتمتع بالشواء والغبوق؛ ثم الختام بذكر تدفئة الضيف وإنامته مسجىً بكريم الكساء، ثم يختم بإرسال الأمثال.

(١) خزانة الأدب، ابن حجة، ١/ ١٨٦.

الشعراء الإسلاميون:

١ – قال الأخطل[١] يفخر بنفسه وقومه ويهجو قبائل من بني كلب

١ – أَتْعرِفُ، مِنْ أَسْـمَاءَ بالجُدِّ، رَوْسَـما ... مُحِيلًا، ونُؤْيًا دارِسًـا، قَد تَهَدَّما؟[٢]

٢ – ومَوْضِـعَ أحطابٍ، تَحَمَّـلَ أَهْلُـهُ ... ومِوْقِدَ نَارٍ، كالحَمَامَةِ، أَسْـحَما؟

٣ – عَلَىٰ آجِنٍ، أبقَـتْ لـه الرِّيُح دِمْنـةً ... وحَوْضًـا، كـأُدْحِيِّ النَّعَـامَةِ، أَثْلَمَا

٤ – تَرَىٰ مِشَـفَر العَيْسَـاءِ، حِينَ تَسُـوفُه ... إِذَا وَجَـدتْ طَـعْمَ المَـرَارَةِ، أَكْزَمَا

٥ – كَـأَنَّ اليَمَـامِيَّ، الطَّبِيـبَ، انبَرَىٰ لَهَـا ... فَذَرَّ لَهـا في الحَوْضِ شَـرْيًا وَعَلْقَمَا

٦ – بِـأَحْنَـاءِ مَجْهُولٍ، تَعـاوَىٰ سِـبـاعُـهُ، ... تَقَوَّضَ، حَتَّىٰ صَـارَ لِلطَّيْرِ أَدْرَمَا

٧ – إِذَا صَـدَرَتْ عَـنْـهُ حَـمـامٌ تَـرَكْـنَـهُ ... لِوِرْدٍ قطًـا، يَسْـقِي فُرادَىٰ، وتَوْأَمَا

٨ – تَـرَاهَـا، إِذَا رَاحَـتْ رِوَاءً، كَـأَنَّـهَـا ... مُعَلِّقَـةٌ، عِـنـدَ الحَنَـاجِرِ، حَنْتَمَا

٩ – تَـأَوَّبُ زُغْـبًـا، بِـالـفَـلَاةِ، تَـرَكْـنَـهَـا ... بِـأَغْبَرَ ، مَجْهُولِ المَخَـارِمِ، أَقْتَمَا

---

(١) هو : غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة، ينتهي نسبه لتغلب، ويكنىٰ أبا مالك، والأخطل لقبه . عن أبي عبيدة: أن السبب فيه أنه هجا رجلا من قومه، فقال له: يا غلام؛ إنك لأخطل . والأخطل السفيه. وكان نصرانيا من أهل الجزيرة . ومحله في الشعر أكبر من أن يحتاج إلىٰ وصف. وهو وجرير والفرزدق طبقة واحدة جعلها ابن سلام أول طبقات الإسلام . ولم يقع إجماع علىٰ أحدهم أنه أفضلهم ولكل واحد منهم عصبة تفضله علىٰ الجماعة . وقال أبو عمرو: لو أدرك الأخطل يوما واحدًا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدًا ، أهـ ١/ ٢٧٢ معاهد التنصيص.

(٢) شعر الأخطل – صنعة السكري روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب . تحقيق د/ فخر الدين قباوة– الطبعة الرابعة – دمشق – دار الفكر ١٩٩٦م. قصيدة رقم ١٣٣ من صفحة ٣٩٥–٤٠٠ .

١٠- إِذَا نَبَّهَتْهُنَّ الرَّوَافِدُ ، بِالقِرَىٰ سَقَينَ مُجَاجَاتٍ هَوَامِدَ، جُثَّمَا
١١- يُنَبِّهْنَ قَيظِيَّ الفِرَاخِ، كَأَنَّمَا يُنَبِّهْنَ مَغْمُورًا، مِنَ النَّوْمِ ، أَعجمَا
١٢- ثَنَيْنَ عَليهَا الرِّيشَ، حَتَّىٰ تَلَاحَقَتْ، وَطَارَ شَعاعًا قَيْضُها، قَدْ تَحطَّمَا
١٣- فَطَارتْ شِلالاً، وابْذَعَرَّتْ، كَأَنَّها عِصابَةُ سَبْيٍ، شعَّ أن يُتَقَسَّمَا
١٤- لَعَمْرِيْ، لَئِنْ أَبْصَرْتُ قَصْدِي، لَقَد أَنَىٰ لِمِثْلِي، يا دَهْمَاءُ، أَنْ يَتَحَلَّمَا
١٥- وَبَيْدَاءَ، مَحْلٍ، لا يُنَاخُ مَطِيُهَا إِذَا ضَنحِبَ الحَادِي، بِها، وتَهَمْهَمَا
١٦- تَرىٰ القومَ، فيهَا، يركَبُونَ رُؤُوسَهُم مِنَ النَّوْمِ، حَتَّىٰ يَكْبَحَ الواسِطُ الفَمَا
١٧- قَطَعْتُ، بِهَوْجَاءِ النَّجَاءِ، نَجِيبَةٍ عُذَافِرَةٍ ، تَهْدِي المَطِيَّ، المُخَرَّمَا
١٨- قَرِيبَةُ تَهْجُونِي، وَعَوْفُ بنُ مَالِكٍ وَزَيْدُ بْنُ عَمْرٍو، طَالَ هَذَا تَحَلُّما!
١٩- وَباللهِ، مَا تَهْجُونَنِي، مِنْ عَدَاوَةٍ ثُكِلتُمْ، وَمَا تَرْمُونَ بالقَذَعِ مُفْحِمَا
٢٠- وَإِنَّا لَحَيٌّ الصِّدقِ، لا غِرَّةٌ بِنَا، وَلا مِثْلَ مَنْ يَقْرِي البَكِيءَ، المُصَرَّمَا
٢١- نَسِيرُ، فَنَحتلُّ المخُوفَ فُرُوعُه، وَنَجْمَعُ، للحَربِ، الخمِيسَ العَرَمْرَمَا
٢٢- وَمُسْتَنْبِحٍ، بَعْدَ الهُدُوءِ، دَعَوْتُه بِصَوْتي، فَاسْتَعْشىٰ بِنِضْوٍ، تَزَعمَّا
٢٣- فَجَاءَ، وَقَدْ بَلَّتْ عَلَيْهِ ثَيَابَهُ سَحَابَةُ مُسْوَدٍّ مِنَ اللَّيْلِ، أَظلَما
٢٤- وَفِي لَيْلَةٍ، مَا يَنْبُحُ الكَلْبُ ضَيْفَهَا، إِذَا نُبِّهَ المَبْلُودُ، فِهَا، تَغَمْغَمَا
٢٥- فَنَبَّهْتُ سَعْدًا، بَعْدَ نَوْمٍ، لِطَارِقٍ أَتَانَا ضَئِيلًا صَوْتُهُ، حِينَ سَلَّمَا
٢٦- فَلَمَّا أَضَاءَتْهُ لَنَا النَّارُ، فَاصْطَلَىٰ، أَضَاءَتْ هِجَفًّا، مُوحِشًا، قَد تَهَشَّمَا
٢٧- فَقُلْتُ لَهُمْ: هاتُوا ذَخِيرَةَ مَالِكٍ، وَإِنْ كانَ قَدْ لاقَىٰ لَبُوسًا، وَمَطْعَمَا
٢٨- فَقَالَ: أَلَا، لَا تُجْشِمُوهَا، وَإِنَّما تَنَحْنَحَ، دُونَ المُكْرَعَاتِ، لِتُجْشَما
٢٩- وَإِنِّي لَحَلَّالٌ بِيَ الحَقُّ ، أَتَّقِي إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ، أَنْ أَتَجهَّما

٣٠- إِذَا لَمْ تَـذُدْ أَلبَـانُهَـا، عَنْ لُحُومِهَـا، حَلَبْنَـا لَـهُ، مِنْهَـا بِـأَسَـيـافِنَـا، دَمـا

٣١- وَمُـنْتَحِـلٍ، مِنِّـىْ ، العَـدَاوةَ نَـالَـهُ عَنـاجِيجُ أَفْرَاسٍ، إِذَا شَـاءَ أَلْجمَـا

٣٢- فَـإِنْ أَكُ قَـدْ عَـانَيْـتُ قَومِي، وَهِبتُهُم فَهَلهِـلْ، وَأَوْلَىْ، عَنْ نُعَيمِ بنِ أَخْثَمـا

٣٣- فَـإِنْ أَعفُ عَنكُم، يـا نُعَيْمُ، فغيرُكُمْ ثَنَىْ عَنكُمُ مِنِّىْ المُسَـرَّ، المُكَتَّمَـا

بعد الحديث عن الديار وأهلها وما أصـابها من التغير والدروس في ثلاثة عشر بيتا، وبعد ذكر تَحَلُّم الشاعر ، وذكر قدرته علىٰ السفر وافتخاره بقطع البيداء المَحْل التي لا يناخ مطيها، وترىٰ القوم فيها يركبون رؤوسـهم من النوم حتىٰ يكبح الواسـط الفما ، ثم ذكر أن قبائل(قريبة وعوف بن مالك، وزيد بن عمرو، تهجوه وطول تحلمه عنهم ويقسـم إنهم لا يهجونه بسـبب عداوة منه لهم، ثم يتعجب كيف ترمون بالقذع (أفحش الهجاء) من ليس مفحما ، بل هو قوَّال ذو لسـان يسـتطيع أن يرد عليكم ويسـكتكم، كيف تفعلون هذا ونحن قوم نسـير فنحتل الأماكن المخوفة، ونُجَيِّشُ الجيوش للحرب ثم يأتي حديثه عن المستنبح، الذي في إجابته فخر له.

وحديث المسـتنبح عند الأخطل في قصـيدته يسـتغرق من البيت الثاني والعشرين إلىٰ البيت الثامن والعشرين- والجديد عند الأخطل أنه هو الذي قد أجاب المسـتنبح بصـوته؛ لأن الكلب في تلك الليلة لا يقوىٰ علىٰ النباح من شدة البرد:

٢٤- وَفِي لَيْلَةٍ، مَا يَنْبُحُ الكَلْبُ ضَيْفَهَا، إِذَا نُبِّهَ المَبْلُودُ، فِيهَا، تَغَمْغَمَا

ثم يصف حال المستنبح وهيئة ثيابه، وقد أصابها مياه المطر؛ وهذه جديدة أيضا؛ ثم يصف السحابة التي بلَّت ثيابه، ويذهب يُنَبِّه سعدًا بعد نوم، إشارة إلىٰ تأخر الوقت لطارق، قد ضؤل صوته عند التسليم من الجوع والتعب –

ثم ذكر النار التي أعدها لاستقبال الضيف وتدفئته، وإنضاج قراه، ثم العودة إلىٰ وصف الطارق الذي أضاءته النار فباتت هيئته كهيئة الهِجَفّ، وهو ذكر النعام المسن، وهذا الهِجَفَ المسن، قد تهشما؛ وهنا يستعرض كرمَه فيقول: هاتوا ذخيرة مالك، يقصد خيار ما يدخر، ومالك هو ولده، ولم يبخل؛ ثم يشير – وهذه جديدة أيضا – إلىٰ حال المستنبح وهو يَرُدُّهم عن ذبح تلك الذخير، علىٰ حين أنه يرغب من قلبه أنهم يذبحونها:

٢٨ – فَقَالَ: أَلَا، لَا تُجِشْمُوهَا، وَإِنَّما تَنَحْنَحَ، دُونَ المُكْرَعَاتِ، لِتُجْشَما

" لا تجشموها : أي لا تتكلفوا أن تجيئوا بها "

٢ - المستنبح في شعر الفرزدق: [١] وقال الفرزدق:

١- وَدَاعٍ بِلَحْنِ الكَلْبِ يَدْعُو ودُونَه ... مِنَ اللَّيْلِ سِجْفَا ظُلْمَةٍ وغُيُومُها[٢]

٢- دَعَا، وهو يَرجُو أن يُنَبِّهَ، إِذْ دَعَا ... فَتًى، كابنِ لَيْلَىٰ، حِينَ غَارَتْ نُجُومُها

٣- بَعَثْتُ لَهُ دَهْمَاءَ لَيْسَتْ بِلِقْحَةٍ ... تَدُرُّ، إِذَا ما هَبَّ، نَحْسًا عَقِيمُها

٤-كَأَنَّ المَحَالَ الغُرَّ فِي حَجَرَاتِهَا ... عَذَارَىٰ بَدَتْ لَمَّا أُصِيبَ حَمِيمُهَا

٥- غَضُوبٌ كَحَيْزُومِ النَّعَامَةِ أُحْمِشَتْ ... بأَجْوَازِ خُشْبٍ زَالَ عنها هَشِيمُها

٦- مُحَضَّرَةٌ، لا يُجْعَلُ السِّتْرُ دُونَهَا ... إِذَا المُرْضِعُ العَوجَاءُ جَالَ بَرِيمُها.

---

(١) الفرزدق: أشهر من أن يعرف به لشهرته ولكنا نوردها موجزة للتذكير فيقال هو : همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن عوف بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر التميمي. أبو فراس، المعروف بالفرزدق الشاعر، المشهور، كان جده صعصعة عظيم القدر في الجاهلية، وكان افتدىٰ ثلاثمائة موءودة، إلىٰ أن جاء الله بالإسلام، وكان أبوه غالب من سَرَاةِ قومه ورئيسهم، وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر أبيه. فما جاءه أحد واستجار به إلا نهض معه، وساعده علىٰ بلوغ غرضه. حَدَّثَ أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي قال: سمعت يونس بن حبيب يقول: ما شهدت مشهدًا قط ذكر فيه جرير والفرزدق، وأجمع أهل المجلس علىٰ أحدهما، وكان يونس يقدم الفرزدق، ويقول ،ما كان بالبصرة مُوَّلد مثله.... وقال آخر: الفرزدق مقدم علىٰ الشعراء الإسلاميين، هو وجرير والأخطل، ومحله في الشعر أكبر من أن ينبه عليه أو يدل علىٰ مكانه بوصف، لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم ويعلمان تقدمه بالخبر الشائع علما يستغنىٰ به الإطالة في الوصف.

أسن الفرزدق حتىٰ قارب المائة، فأصابته الدُّبَيْلَةُ .. ومات في مرضة ذلك سنة عشر ومائة، أهـ معجم الأدباء ٦ / ٢٧٨٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة ٤ / ١٧٠٢ – الديوان ٢ / ٣٢٣ طبعة مجيد ط١ .

لا أعلم شاعرًا تكرر في شعره ذكر المستنبح غير الفرزدق إلا ما كان من ابن هرمة، الذي أجاد ذكر المستنبح، وجَمَّل الحديث عنه.

هذه المقطوعة من شعر الفرزدق، قد وردت في ديوانه سوىٰ البيتين الأخيرين،

١ – وَدَاعٍ بِلَحْنِ الكَلْبِ يَدْعُو ودُونَه مِنَ اللَّيْلِ سِجْفَا ظُلْمَةٍ وغُيُومُها

" قوله: " داع بلحن الكلب"، يعنىٰ مستنبحًا تكلف نبيح الكلب في صوته، ولَحَنَ لَحْنَه، وفعل ذلك إذ حال بينه وبين المناظر من الليل ستران من الظُلَم ، والتباس الغيوم، وإنما قال: " سجفا ظلمة وغيومها " تأكيدًا ، كما قيل: (ظلمات بعضها فوق بعض) ولهذا لم يرض بذلك حتىٰ أضاف إليه ظلمة السحاب أيضا المغطية الكواكب." (١)

من الواضح تأثر الفرزدق بشعر عوف بن الأحوص وأخيه شريح كما مر، فذكر المستنبح وبين حالة الجو من اشتداد الظلمة.

٢ – دَعَا، وهو يَرجُو أن يُنَبِّهَ، إِذْ دَعَا فَتًىٰ، كابنِ لَيْلَىٰ، حِينَ غَارَتْ نُجُومُها

يقول: استنبح، وهو يؤمل أن يتنبه لدعائه وينبعث فتىٰ كغالب، حين غارت النجوم بالليل، والأهوال متراكمة، وظلم الليل والسحاب متراكبة " من جميل التخلص من الحديث عن الافتخار بإغاثة المستنبح إلىٰ الافتخار بأبيه الذي كناه بابن ليلىٰ والجديد أنه أضاف إلىٰ صفات المستنبح؛ أنه حين كان يدعو كان يأمل أن يهب إلىٰ نجدته فتىٰ كابن ليلىٰ، فهذا فخر بأبيه وهو

(١) شرح ديوان الحماسة ١٧٠٢ اعتمدنا في حل غريب القطعة عليه .

فخر بنفسه ، ثم نذهب أيضا إلىٰ جديد في الصياغة لمعاني الحديث عن المستنبح فيقول:

٣- بَعَثْتُ لَهُ دَهْمَاءَ لَيْسَتْ بِلِقْحَةٍ تَدُرُّ، إِذَا ما هَبَّ، نَحْسًا عَقِيمُها

٤- كَأَنَّ المَحَالَ الغُرَّ فِي حَجَرَاتِهَا عَذَارَىٰ بَدَتْ لَمَّ أُصِيبَ حَمِيمُهَا

٥- غَضُوبٌ كَحَيْزُومِ النَّعَامَةِ أُحْمِشَتْ بِأَجْوَازِ خُشْبٍ زَالَ عنها هَشِيمُها

٦- مُحَضَّرَةٌ، لا يُجْعَلُ السِّتْرُ دُونَهَا إِذَا المُرْضِعُ العَوجَاءُ جَالَ بَرِيمُها.

الجديد في الصياغة للمعاني هو الحديث عن القدر الذي أسرع بها لنجدة هذا الداعي وإذا كانت القدر قد ورد الكلام عنها منفصلا ببيت في شعر (عوف بن الأحوص) فقد جاءت متصلة في شعر الفرزدق بحديث المستنبح ولا يخفىٰ تأثر الفرزدق بأبيات عوف، يلحظ هذا من تشكيل خيوط المعاني، فيقول: بعثت..." وبعثت هذه هي جواب " رب" المحذوفة في قوله : " وداع بلحن الكلب " ومعنىٰ أنه بعثها أي أيقظ حركتها بإشعال نارها وملئها بلحم ما يجزره، ثم إن الفرزدق نفىٰ أن تكون الدهماء في كلامه مقصودًا بها " اللقحة " أي الناقة؛ لأن مثل الفرزدق لا يكتفي في إجابة من قصده من الجوع أن يسقيه اللبن، بل لابد من إطعامه اللحم؛ ثم ذكر أن هذه القدر التي كَنَّىٰ عنها بقوله: " دهماء" يعنىٰ سوداء من طول وجود الدخان تحتها وديمومته فلا يستطيع أحد أن يغسلها، لدوام العمل بها. وهذه القدر لا تَدُرُّ اللبن كاللِّقْحَة وإنما تَدرُّ المَرَقَ في الوقت الذي تهب فيه الريح العقيم ويعني به الدَّبور، لأنهَا لا تُلْقِح، وبها هلكت الأمم السابقة . ثم بين ما تدره القدر بعد أن ذكر الفعل " تَدُرُّ " عاريا عن مفعوله، فقال :

٤ – كَأَنَّ المَحَالَ الغُرَّ فِي حَجَرَاتِهَا عَذَارَىٰ بَدَتْ لَمَّا أُصِيبَ حَمِيمُهَا[١]

بيَّن بهذا التشبيه مدىٰ جودة هذا اللحم وانتقاء الجزور حين بين أن شكل بياض اللحم في سواد تلك القدر . يُشْبِه بياضَ ما ظهر من أطراف تلك العذارىٰ في تلك الثياب السوداء. ينظر مدىٰ عبقرية الفرزدق كيف بين من خلال التشبيه أنه قد اختار أفضل النوق لإطعام ضيفه من تلك الصفة، ثم يرجع إلىٰ وصف القدر مَرَّةً أخرىٰ فيصفها بأنها :

٥ – غَضُوبٌ كَحَيْزُومِ النَّعَامَةِ أُحْمِشَتْ بِأَجْوَازِ خُشْبٍ زَالَ عنها هَشِيمُهَا[٢]

يقصد حركة غليان القدر وهزتها كأنها إنسان من شدة غضبه لا يكاد يستقر في مكان فهو يكَنِّي عن شدة الإيقاد وما يترتب عليه من شدة غليان القدر وفوران ما بها من مرَقٍ ولحم ثم شبهها في اتساعها وضخامتها بصِدر النعامة ذاك المنتفش وهو أضخم شيء فيها، ولعله يلحظ أنه ذكر أنها غضوب يعنىٰ شدة غليانها، ثم زاد أمر الغليان وضوحا فبيَّن أنها يشتد غليانها بإمدادها بقطع الخشب الجزلة التي ليست بعيدان دقيقه وذلك قوله: " بأجواز خشب زال عنها هشيمها " والقصد في ذلك إلىٰ تعظيم النار الموقدة تحتها لكبرها، وهذه كناية متعددة الوسائط عن مدىٰ كرمه، ثم يختم بوصف القدر بأنها" مُحَضَّرَة " يعنىٰ لا يمنع منها أحد، ولا تقنَّع بما يسترها عن العيون إذا أمحل الزمان، واشتد القحط، ثم كنىٰ عن شدة الزمان

(١) المحال فقر الظهر، والواحدة مَحَالةٌ، يقول: إن قطع اللحم الكبيرة البيضاء من السِمَن تبدو في جوانب القدر السوداء كأبكار النساء، وقد لبسن ثياب الحداد لما أصبن بحميمهن.

(٢) الحيزوم وسط الصدر من الدابة وما يضم عليه الحزام، ويعني أحمشت أي أغضبت.

بقوله: " إذا المرضــع العوجاء جال بريمُها، المرضــع هي المرأة التي في مرحلة رضـاع، والبريم: خيط يفتل من صـوف أبيض وأسـود يشـد في أَحْقِي الصــبيان لتدفع به عنها العين. يقول في الوقت الذي يجوع فيه الناس فترىٰ المرأة المرضـع قد اعوجت خلقتها فجال عليها وشـاحها؛ لانحسـار اللحم عنها. وإذا تأملنا هذه الأبيات للفرزدق وجدناها تشــبه في معناها الإجمالي وصف القدر في أبيات عوف بن الأحوص الجاهلي .

٢- وقال بمدح هشام بن عبد الملك[١]

ويتعذر إليه من هجائه المبارك ، ويذكر خالد بن عبد الله ويمدحه، ثم يفتخر بكرمه .

مطلع القصيدة:

١- إِنْ اسْتَطِعْ مِنْكَ الدُّنُوَّ، فَإِنَّنِي سَأَدْنُو بأشْلَاءِ الأسيرِ المُقَيَّدِ

وفيها يفتخر قَائلًا:

١٩- وَسَارٍ قَتَلْتُ الجُوعَ عَنْهُ بضَرْبَةٍ، أَتَانَا طُرُوقًا، بالحُسَامِ المُهنَّدِ

٢٠- عَلَىٰ سَاقِ مِقْحَادٍ جَعَلْنَا عَشَاءَهُ شَطائِبَ من حُرِّ السَّنامِ المُسَرْهَدِ

٢١- وَطَارِقِ لَيْلٍ قَدْ أَتَانِي، وَسَاقَهُ إِلَّىٰ سَنَا نَاري وكَلْبٍ مُعَوَّدِ

٢٢- وَمُسْتَنْبِحٍ أَوْقَدْتُ نَارِي لصَوْتِهِ، بِلاَ قَمَرٍ يَسْرِي وَلَا ضَوْء فَرْقَدِ

٢٣- وَنَارٍ رَفَعْنَاهَا لِمنَ يَبْتَغِي القِرَىٰ عَلَىٰ مُشْرِفٍ فَوْقَ الجَرَاثِيمِ موقَدِ

جاء ذكر المستنبح في هذه القصيدة في البيت قبل الأخير:

٢٢- وَمُسْتَنْبِحٍ أَوْقَدْتُ نَارِي لصَوْتِهِ، بِلاَ قَمَرٍ يَسْرِي وَلَا ضَوْء فَرْقَدِ

لأن سياق القصيدة ليس خالصا للفخر بنفسه ولكنه يمدح ويعتذر. ولو كان أحد غير الفرزدق في هذا الظرف لما استطاع أن يذكر شيئا من الفخر بين يدي الخليفة مع وجود ما يعتذر منه ، ولكنه الفرزدق يأبي إلا أن يفخر بنفسه وبقومه في أي وقت وفي أي زمان وبين يدىٰ أي إنسان شئت، فبعد أن قضىٰ مأربه من المديح والاعتذار أقبل يفتخر بنفسه وكرمه ثم ذكر أمر

(١) القصيدة رقم (١٢٠) الديوان جـ١ ١٥٧ – ١٥٩ .

المستنبح وأنه طالما تكرر منه إنجاد مستنبح أحس صوته وتسمع في هدوء الليل نباحه، فأسرع بإيقاد النار لصوته في شدة ظلام الليل الذي لا ينير فيه قمر ولا ضوء فرقد . وقوله:

٢٢- وَمُسْتَنْبِحٍ أَوْقَدْتُ نَارِي لصَوْتِهِ، بِلاَ قَمَرٍ يَسْرِي وَلَا ضَوْء فَرْقَدِ

لا يعني به أنه أوقد نارًا لم تكن موقدة بدليل البيت الذي بعده

٢٣- وَنَارٍ رَفَعْنَاهَا لِمنَ يَبْتَغِي القِرَىٰ عَلَىٰ مُشْرِفٍ فَوْقَ الجَرَاثِيمِ موقَدِ

كيف يكون من شأنه رفع النار علىٰ مشرف يعني " مرتفع " فوق الجراثيم التي هي أماكن ضخمة من ماء وطين مرتفعة عالية، ثم يذكر أنه يوقد النار للمستنبح لصوته أي لسماع صوته. وهذا يعني أنه حينما وصل إلىٰ سمعه نباح من ينبح علم أن هذا صوت ضال في الصحراء فأسرع وحرك تلك النار الموقدة وهيجها حتىٰ يشتد اشتعالها وضوؤها فيبصر هذا الغريبُ ويهتدي إلىٰ مكانه وذلك كما يقول الحماسي:

١- وَمُستَنْبح تَهْوىٰ مَساقُط رأسِه إلىٰ كُلِّ شَخص فهو للسمع أَصْوَرُ

٢- يُصفِّقُه أنفٌ من الريحِ باردٌ ونكباءُ ليل من جُمَادىٰ وصَرْصَرُ

٣- حَبِيبُ إلىٰ كلب الكريم مُنَاخُه بغيض إلىٰ الكوماءِ، والكلبُ أبْصَرُ

٤- حَضَأْتُ له نَارِي فأبصر ضوءَها وما كادَ لولا حَضْأَةُ النّارِ يُبْصِرُ

الشاهد في البيت الرابع، " حَضَأْتُ له ناري" النار موجودة موقدة بالفعل ولكن إيقادها ضعيف خافت تحتاج إلىٰ أن تُحْضَأَ لكي تَظْهَر و تُرىٰ فقال

حَضَأْتُ النار يعني رفعتُها وهيَّجْتُها له فأبصرها واستدل بها ولولا رَفْعِي النارَ وتهييجي إياها لكان لا يُبْصِرُ الطريقَ ولا يرَىٰ مُسْتَدِلًّا به(١).

هذا ما يقصده الفرزدق بقول : " أوقدت ناري لصوته "

الملاحظ أن الكلام عن المستنبح جاء في بيت واحد في إيجاز ولم يصفه إلا بأنه سمع صوته في الظلام الذي كنىٰ عنه بقوله :

٢٢- وَمُسْتَنْبِحٍ أَوْقَدْتُ نَارِي لصَوْتِهِ، بِلاَ قَمَرٍ يَسْرِي وَلَا ضَوْء فَرْقَدِ

وفي الكلام تقديم وتأخير علىٰ عادة الفرزدق؛ وترتيب البيت هكذا: ومستنبح يسرىٰ بلا قمر ولا ضوء فرقد أوقدت ناري لصوته .

(١) انظر شرح ديوان الحماسة ١٦٤٦ .

وقال الفرزدق (همام بن غالب)(١)

١- وَمُسْـتَنبِحٍ طَاوِي المَصِـيرِ كَأَنَّمَا يُـخَـامِـرُهُ مِـن شِـــدَّةِ الـجُـوعِ أَوْلَـقُ
٢- دَعَوْتُ بَحمْرَاءِ الفُرُوعِ كَـأَنَّهَـا ذُرَىٰ رايـةٍ فِي جَـانِـبِ الـجَـوِّ تَـخْـفِـقُ
٣- وَإِنِّي سَـفِيُه النَّارِ لِلمُبْتَغِي القِرَىٰ وَإِنِّي حَلِيُم الكَلْـبِ لِلَّضْـيفِ يَطْرُقُ
٤- إِذَا مُـتُّ فـابْكِينِي بِمـا أنـا أَهْلُـهُ فـكُّـل جَـمِـيـلٍ قُـلْـتِ فِيَّ يُصَـــدَّقُ
٥- وَكَمْ قَائلٍ : مَاتَ الفَرزْدَقُ والنَّدىٰ وَقَـائِـلَـةٍ : مَـاتَ الـنَّـدَىٰ والـفَـرزْدِقُ

جـاء الحـديـث في هـذه القطعـة التي لم ترد في ديوان الفرزدق في جميع طبعاته= في بيتين الأول والثاني فوصـفه بأنه طاوي المصـير يعني به شـدة الجوع كنىٰ عنه بضـمُور البطن فالمَصِـير مجاز عن البطن لأن المصـير هي المِعَي، يعني يكاد بطنه يلتصق بظهره من شـدَّة الجوع ، ثم فسرَّ هذا بقوله : يُخَامِرُهُ مِن شِـــدَّةِ الجُوعِ أَوْلَقُ، الأولق هو الجنون، وهذا نهاية في وصـف المستنبح بالجوع، وهذا أيضـا أول وصـف جديد من صـفات المستنبح لم يمر علينا من قبل، فالمعهود وصـف ظلمة المكان أو شـدة الريح والبرد، أما البدء بوصفه بشدة الجوع فهذا شيء جديد. ثم يأتي البيت الثاني:

٢- دَعَوْتُ بَحمْرَاءِ الفُرُوعِ كَأَنَّهَا ذُرَىٰ رايةٍ فِي جَانِبِ الجَوِّ تَخْفِقُ

حمراء الفروع كناية عن موصـوف هو النار، كَنَّىٰ عنها ثم شـبهها بأنها قمة راية أي علم في جانب الجو تخفق أي تضـطرب وتتحرك وترفرف يشـير إلىٰ علو ارتفاع النار التي حَضَأَها لسماع صوت المستنبح؛ فهو كَنَّىٰ عن النار ثم

(١) الحماسة البصرية ٢ / ١٣٠٦ (الحماسية رقم ١١٩٤) وهذا الشعر ليس في ديوان الفرزدق .

شبهها براية خفاقة في جو السماء، ومعنىٰ دعوته بالنار؛ أنه جعل ضوء النار دعوة له لكي يُبْصِرَ المكان ويهتدي إليه، ثم يتكلم في البيت الذي يليه عن مدىٰ كرمه؛ بأنه سفيه النار لمن يبتغي القرىٰ ، فناره دائما هائجة طائشة تدعو من يُرِيدُ الْقِرىٰ وكلبه حليم للضيف ما أجمل هذا الطباق بين(سفيه وحليم)، وتمام الأبيات كأنها رثاء الفرزدق لنفسه، ففيها رائحة الإحساس بالموت والفراق .

وقال الفرزدق[1]:

١- لَعَمْرُك مَا تَجْزِي مُفَدَّاةُ شُقَّتىٰ ... وَإِخْطار نَفْسِي الكَاشِحينَ وَمَالِيَا

٢- وَسَيْرِي إِذَا مَا الطِّرِمْسَاءُ تَطخطختْ ... عَلَىٰ الرِّكْبِ حَتَّىٰ يَحْسبوا القُفَّ وَادِيَا

٣- وَقِيَلي لأَصْحَابِي أَلَمَّا تَبَيَّنُوا ... هَوَىٰ النَّفْسِ قَدْ يَبْدُو لَكُمْ مِنَ أَمَامِيَا[2]

٤- وَمَنْتَجِعٍ دَارَ الْعَدُوِّ كَأَنَّهُ ... نَشَاصُ الثُّرَيَّا يَسْتَظِلُّ العَوَالِيَا

٥- كَثِيرَ وغَىٰ الأَصْوَاتِ تَسْمَعُ وَسْطَهُ ... وَئِيدًا إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ، وَحَادِيَا

٦- وَإِنْ شَذَّ مِنْهُ الأَلْفُ لَمْ يُفْتَقَدْ لَه ... وَلَو سَارَ فِي دَارِ العَدُوِّ لَيَالِيَا

٧- نَزَلْنَا لَهُ، إِنَّا إِذا مِثْلُهُ انْتَهَىٰ ... إِلَيْنَا قَرَيْنَاهُ الوَشِيجَ المَوَاضِيَا

٨- فَلَمَّا الْتَقَيْنَا فَاءَلَتْهُمْ نُحُوسُهُمْ ... ضِرَابًا تَرَىٰ ما بَيْنَهُ مُتَنَائِيَا

٩- وَأُخْبِرْتُ أَعْمَامِي بَنِىٰ الفِزْرِ أَصْبَحُوا ... يَوَدُّونَ لَوْ أَزْجَوْا إِلَىٰ الأَفَاعِيَا

١٠- فَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي تَمِيمٍ تُلَاقِنِي ... بِرَابِيَةٍ غَلْبَاءَ، تَعْلُو الرَّوَابِيَا

١١- تَجِدْنِي وَعَمْرٌو دُونَ بَيْتِي ومالِكٌ ... يُدِرُّونَ للنَّوْكَي العُرُوقَ العَوَاصِيَا

١٢- بِكُلِّ رُدَيْنِيٍّ حَدِيدٍ شَبَاتُهُ ... فَأُوَلاكَ دَوَّخْنَا بِهِنَّ الأَعَادِيَا

١٣- وَمُسْتَنْبِحٍ واللَّيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَه ... يُراعِي بِعَيْنَيْهِ النُّجُومَ التَّوَالِيَا

---

(١) ديوان الفرزدق ٢ / ٤٢٥ – ٤٢٨ قصيدة رقم (٥٤٨) .

(٢) بعد هذا البيت في طبعة الصاوي يوجد أربعة أبيات ، توضح المراد من مفتتح القصيدة،وها هي ذي :

١- فما روضة، وسيمة ، رجبية ∴ خلت ، وتحامتها الرياح تحاميا

٢- بأطيب نشرا من مفداة موهنا ∴ إذا ما رأت للضجيع تعاطيا

٣- يلوذ بعطفيها، وقد بذلت له ∴ فراتا كَبَيُّوت الوقيعة صافيا

٤- فلما عرفت البذل منها دفرتها ∴ علىٰ خُلَّسٍ يشفين من كان صاديا

١٤- سَرَىٰ إِذْ تَغَشَّىٰ اللَّيْلُ تَحْمِلُ صَوْتَهُ إليَّ الصَّبَا، قَدْ ظَلَّ بالأَمْسِ طاوِيَا

١٥- دَعَا دَعوَةً كَالْيَأْسِ لَمَّا تَحَلَّقَتْ بِهِ البِيدُ وَاعْرَوْرَىٰ المِثَانَ القَيَاقِيَا

١٦- فَقُلْتُ لِأَهْلِي: صَوْتُ صَاحِبِ نَفْرَةٍ دَعَا أَوْصَدًىٰ نَادَىٰ الفِرَاخَ الزَّوَاقِيَا

١٧- تَأَنَّيْتُ واسْتَمَعْتُ حَتَّىٰ فَهِمتُهَا وَقَدْ قَفَّعتْ نَكبَاءَ منْ كَانَ سَارِيَا

١٨- فَقُمْتُ وَحَاذَرْتُ السُّرىٰ أَنْ تَفُوتَنِي بِذِي شُقَّةٍ تَعْلُو الكُسورَ الخَوَافِيَا

١٩- فَلَمَّا رَأَيْتُ الرِّيحَ تَخْلِجُ نَبْحَهُ وَقَدْ هَوَّرَ اللَّيْلُ السِّمَاكَ اليَمَانِيَا

٢٠- حَلَفْتُ لَهُمْ إِنْ لمْ تُجِبْهُ كِلَابُنَا لأَسْتَوْقِدَنْ نَارًا تُجِيبُ المُنَادِيَا

٢١- عَظِيمًا سَنَاهَا للعُفَاةِ، رَفِيعَةٌ، تُسَامِي أُنُوقَ المُوقِدِينَ فنَائِيَا

٢٢- وَقُلْتُ لِعَبْدَيَّ: اسْعِرَاهَا، فَإِنَّهُ كَفَىٰ بِسَنَاهَا لابِن إِنْسِكَ دَاعِيَا

٢٣- فَمَا خَمَدَتْ حَتَّىٰ أَضَاءَ وَقُودُهَا أَخَا قَفْرَةٍ يُزْجِي المَطِيَّةَ حَافِيَا

٢٤- فَقُمْتُ إِلَىٰ البَرْكِ الهُجُودِ، وَلَمْ يكن سِلَاحي يُوَقِّي المرْبِعَاتِ المَتَالِيَا

٢٥- فَخُضْتُ إِلَىٰ الأَثْنَاءِ مِنْهَا وَقَد تَرىٰ ذَوَاتِ البَقَايَا المُعْنِسَاتِ مَكَانِيَا

٢٦- وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّنِي اخْتَرْتُ للقِرَىٰ ثَنَاءَ المخَاضِ والجِذَاعَ الأَوَابِيَا

٢٧- فَمَكَّنْتُ سَيْفِي مِنْ ذَوَاتِ رِمَاحِهَا غِشَاشًا، وَلَمْ أَحْفِلْ بُكَاءَ رِعَائِيَا

٢٨- وَقُمْنَا إِلَىٰ دَهْمَاءَ ضَامِنَةِ القِرَىٰ غَصُوبٍ إِذَا مَا اسْتَحْملوهَا الأَثَافِيَا

٢٩- جَهُولٍ كَجَوْفِ الفِيلِ، لَمْ يُرَ مثلُها، تَرَىٰ الزَّورَ فِيهَا كَالغُثَاءَةِ طَافِيَا

٣٠- أَنَخْنَا إِلَيْهَا مِنْ حَضِيضِ عُنَيْزَةٍ ثَلاثًا كَذَوْدِ الهَاجِرِيِّ رَوَاسِيَا

٣١- فَلَمْاَ حَطَطْنَاهَا عَلَيْهِنَّ أَرْزَمَتْ هُدُوءًا وَأَلْقَتْ فَوْقَهُنَّ البَوَانِيَا

٣٢- رَكُودٍ، كَأَنَّ الغَلْىَ فِيهَا مُغِيرَةٌ رَأَتْ نَعَمًا قَدْ جُنَّهُ الَّليْلُ دَانِيَا

٣٣- إِذَا اسْتَحْمَشُوهَا بِالوَقُودِ تَغَيَّظَتْ عَلَىٰ اللَّحْمِ حَتَّىٰ تَتْرُكَ العَظْمَ بَادِيَا

٣٤- كَأَنَّ نَهِيمَ الغَلْيِ فِي حُجُراتِهَا تَمَارِي خُصُومٍ عَاقِدِينَ النَّوَاصِيَا

٣٥- لَهَا هَزَمٌ وَسْطَ البُيُوتِ، كَأَنَّهُ صَرِيحيَّةٌ، لا تَحْرِمُ اللَّحْمَ جَادِيَا

٣٦- ذَلِيلَةِ أَطْرَافِ الْعِظَامِ رَقِيقَةٍ، تَلَقَّمُ أَوْصَالَ الجزُورِ كَمَا هِيَا
٣٧- فَمَا قَعَد الْعَبْدانِ حَتَّىٰ قَرْيتُهُ حَلِيبًا وَشَحْمًا مِنْ ذُرَىٰ الشَّوْلِ وَارِيَا

يتحدث الفرزدق في تلك القصيدة من البيت:

١- لَعَمْرُك مَا تَجْزِي مُفَدَّاةُ شُقَّتىٰ وَإِخْطار نَفْسِي الكَاشِحينَ وَمَالِيَا
٢- وَسَيْرِي إِذَا مَا الطِّرِ مْسَاءُ تَطخطختْ عَلَىٰ الرّكْبِ حَتَّىٰ يَحْسبوا القُفَّ وَادِيَا
٣- وَقِيَلي لأَصْحَابِي أَلَمَّا تَبَيَّنُوا هَوَىٰ النَّفْسِ قَدْ يَبْدُو لَكُمْ مِنَ أَمَامِيَا

وبعدهن أربعة أبيات في طبعة الصاوي عن شكواه من حبيبته " مُفَدَّاة " التي لا تكافئه علىٰ كدحه في السفر إليها من شقة بعيده وتعريض نفسه وماله للخطر، وسيره في شدة ظلام الليل الدامس الذي يهيئ للساري أن " القف " المكان المرتفع أرض مسطحة، وتذلله لأصحابه أن يتبعوه فيما يريد من السفر؛ لأن فيه هوىٰ النفس . وذلك لأن " مُفَدَّاة " تلك أطيب نشرًا من رائحة روضة، وسمية، رجبية، خلت وتحامتها الرياح تحاميا مَوْهِنا، أي في آخر الليل عندما يغفل النساء عن شؤنهن الخاصة بعدما يغلبهم النوم. " مفداة " هذه في ذلك الوقت تعبق طيبا رائحتها، وبعذب طعما رضابها وتعاطي الضجيع أفضل ما عندها . وبعد تلك المقدمة الغزلية يتحدث عن:

٥- كَثِيرَ وغَىٰ الأَصْوَاتِ تَسْمَعُ وَسْطَهُ وَئيدًا إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ، وَحَادِيَا
٦- وَإِنْ شَذَّ مِنْهُ الأَلْفُ لَمْ يُفْتَقَدْ لَه وَلَو سَارَ فِي دَارِ العَدُوِّ لَيَالِيَا
٧- نَزَلْنَا لَهُ، إِنَّا إِذَا مِثْلُهُ انْتَهَىٰ إِلَيْنَا قَرَيْنَاهُ الوَشِيجَ المَوَاضِيَا
٨- فَلَمَّا الْتَقَيْنَا فَاءَلَتْهُمْ نُحُوسُهُمْ ضِرَابًا تَرَىٰ ما بَيْنَهُ مُتَنَائِيَا
٩- وَأُخْبِرْتُ أَعْمَامِي بَنِيْ الفِزْرِ أَصْبَحُوا يَوَدُّونَ لَوْ أَزْجَوْا إِلىٰ الأَفَاعِيَا

عن كثرة منازلته هو وقومه جيوشـا يصـف عظمها وكثرتها بدقة عالية ثم يتكلم :

١٠- فَإِنْ تَلْتَمِسْـنِي فِي تَمِيمٍ تُلَاقِنِي بِرَابِيَـةٍ غَـلْبَـاءَ، تَـعْلُو الرَّوَابِيَـا

١١- تَجِدْنِي وَعَمْرٌو دُونَ بَيْتِي ومالِكٌ يُدِرُّونَ للنَّوْكَي العُرُوقَ العَوَاصِيَا

١٢- بِكُـلِّ رُدَيْنِيٍّ حَـدِيـدٍ شَـبَـاتُـهُ فَـأُوَلاكَ دَوَّخْنَـا بِهِـنَّ الأَعَـادِيَـا

١٣- وَمُسْـتَنْبِحٍ واللَّيْـلُ بَيْنِي وَبَيْنَـه يُراعِي بِعَيْنَيْـهِ النُّجُومَ التَّوَالِيَـا

عن أعمامه من بني الفزر الذين أصـبحوا يودون لو أزجوا إليه الأفاعيا، يعني أنهم يسـعون لـه في الفتنة والشـر ويردوا عليهم بـأنهم إن التمسـوه وتحسـسـوا موقعه في تميم لوجدوه في بيت عز يعلو البيوت، وسـيجدونه هو وعمرًا، ومـالكـا يحلبون بسـيوفهم الـدم للحمقىٰ ليُقَوِّموا تلـك العروق العواصيا، تلك السيوف التي دوخت الأعداء.

الحديث من المستنبح:

ثم بعد ذلك يخلص للحديث عن المستنبح من باب الافتخار فيقول:

١٤- سَرَىٰ إِذْ تَغَشَّىٰ اللَّيْلُ تَحْمِلُ صَوْتَهُ إليَّ الصَّـبَا، قَدْ ظَلَّ بالأَمْسِ طاوِيَا

١٥- دَعَا دَعوَةً كَالْيَأْسِ لَمَّا تَحَلَّقَتْ بِهِ البِيدُ وَاعْرَوْرَىٰ المِثَانَ القَيَاقِيَا

١٦- فَقُلْتُ لِأَهْلِي: صَوْتُ صَاحِبِ نَفْرَةٍ دَعَا أَوْصَدًىٰ نَادَىٰ الفِرَاخَ الزَّوَاقِيَا

يصف المستنبح أنه يحول بينه وبين الاهتداء إلىٰ نار الفرزدق ظلام الليل وهو يراعي بعينيه النجوم التواليا، وأنه قد سرىٰ في الوقت الذي قد تغشىٰ الليل بظلامه الصحراء فلا يحمل صوت الطارق إليه إلا ريح الصَّبا، وقد ظل هذا البائس بالأمس طاويا لم يذق طعاما، لذلك دعا دعوة يائس فقد الأمل لما أحاطت به الصحراء بظلامها وكلَّ من تعب قطع الأماكن الغليظة المحرشفة.

١٦- فَقُلْتُ لِأَهْلِي: صَوْتُ صَاحِبِ نَفْرَةٍ دَعَا أَوْصَدًىٰ نَادَىٰ الفِرَاخَ الزَّوَاقِيَا

١٧- تَأَنَّيْتُ واسْتَمَعْتُ حَتَّىٰ فَهِمتُهَا وَقَدْ قَفَّعتْ نَكبَاءَ منْ كَانَ سَارِيَا

١٨- فَقُمْتُ وَحَاذَرْتُ السُّرىٰ أَنْ تَفُوتَنِي بِذِيٰ شُقَّةٍ تَعْلُو الكُسورَ الخَوَافِيَا

١٩- فَلَمَّا رَأَيْتُ الرِّيحَ تَخْلِجُ نَبْحَهُ وَقَدْ هَوَّرَ اللَّيْلُ السِّمَاكَ اليَمَانِيَا

٢٠- حَلَفْتُ لَهمْ إِنْ لمْ تُجِبْهُ كِلَابُنَا لأَسْتَوْقِدَنْ نَارًا تُجِيبُ المُنَادِيَا

٢١- عَظِيمًا سَنَاهَا للعُفَاةِ، رَفِيعَةٌ، تُسَامِي أُنُوقَ المُوقِدِينَ فنَائِيَا

٢٢- وَقُلْتُ لِعَبْدَيَّ: اسْعِرَاهَا، فَإِنَّهُ كَفَىٰ بِسَنَاهَا لابِن إِنْسِكَ دَاعِيَا

٢٣- فَمَا خَمَدَتْ حَتَّىٰ أَضَاءَ وَقُودُهَا أَخَا قَفْرَةٍ يُزْجِي المَطِيَّةَ حَافِيَا

يستفهم أهله: ما هذا الصوت الذي أسمع؟ أصوت داع إلىٰ الحرب أم صوت طائر ينادي أفراخه؟، فلما فهم وعرف، أنه صوت طارق ليل قد

أيْبَسَتْهُ الريح الباردة قام سريعا مخافة أن يفوته الظفر بهذا الطارق الذي أعياه قطع المفازات الغليظة . فلما رأي أن الريح تضعف صوته بعد أن قارب أفول نجم السحر هدد أصحابه إن لم تجبه كلابنا ليعظمن إشعال النار حتىٰ تجيب المناديا، ثم وصف تلك النار بأنها عظيم ضوؤها للعفاة، تكاد من علو لهيبها أن تحاذي أنوف موقديها ثم أمر عبديه بإسعارها وتأجيجها لكي يكون ضوؤها داعيا لصاحب ليلته وهو الطارق.

٢٤- فَقُمْتُ إِلَىٰ البَرْكِ الهُجُودِ، وَلَمْ يكن سِلَاحي يُوَقِّي المرْبِعَاتِ المَتَالِيَا

٢٥- فَخُضْتُ إِلَىٰ الأَثْنَاءِ مِنْهَا وَقَد تَرىٰ ذَوَاتِ البَقَايَا المُعْنِسَاتِ مَكَانِيَا

٢٦- وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّنِي اخْتَرْتُ للقِرَىٰ ثَنَاءَ المخَاضِ والجِذَاعَ الأَوَابِيَا

٢٧- فَمَكَّنْتُ سَيْفِي مِنْ ذَوَاتِ رِمَاحِهَا غِشَاشًا، وَلَمْ أَحْفِلْ بُكَاءَ رِعَائِيَا

٢٨- وَقُمْنَا إِلَىٰ دَهْمَاءَ ضَامِنَةِ القِرَىٰ غَضُوبٍ إِذَا مَا اسْتَحْملوهَا الأَثَافِيَا

يتكلم عن القدر ومدىٰ اتساعها وعظمها وغليانها والحجارة التي جُلبتَ لها من حضيض عنزة لتكون لها أثافيَ، إلخ ما نجده من صفات للقدر والحطب الجزل الذي يؤججها . ثم يأتي ختام القصيدة عن المستنبح :

٣٧- فَمَا قَعَد الْعَبْدانِ حَتَّىٰ قَرَيْتُهُ حَلِيبًا وَشَحْمًا مِنْ ذُرَىٰ الشَّوْلِ وَارِيَا

٣ - المستنبح في شعر (إبراهيم بن هَرْمَة)[١]

١ - وقال إبراهيم بن هَرْمَة[٢]

١ – ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالثوب معصم

٢ – عوىٰ في سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع نوم

٣– فجاوبه مستسمع الصوت للقرىٰ له مع إتيان المهبين مطعم

٤ – يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم

ابن هَرْمَة من الشعراء الذين أبدعوا في الحديث عن المستنبح، والحديث عن استقبال الكلب للضيف؛ وقد تكرر ذكر المستنبح في شعر ابن هرمة، وهذه القطعة من شعره قد دارت في كتب الأقدمين اعجابا بما فيها من إبداع خاصة في وصف الكلب والتعبير عن مضمر نفسه وفرحه بالضيف :

---

(١) هو إبراهيم بن هّرْمَة، هو من الخُلجُ، والخُلُجُ من قيس عيلان، ويقال: إنهم من قريش، فسموا الخلج لأنهم اختلجوا منهم. وكان إبراهيم من ساقة الشعراء: ابن ميادة، وابن هرمة، ورؤبة، وحكم الخضري، (حي من محارب) ، ومكين العذري، وقد رأيتهم أجمعين . وكان إبراهيم مولعا بالشراب ، وأخذه خثيم بن عراك صاحب شرطة المدينة لزياد بن عبيد الله الحارثي، في ولاية أبي العباس، فجلده الحدّ، فقال ابن هرمة:

عققت أباك ذا نشب ويسر ∴ فلما أفنت الدنيا أباكا

علقت عدواتي، هذي لعمري ∴ ثياب الشر تلبسها عراكا

أهـ من الشعر والشعراء ٢ / ٧٤١ .

(٢) ديوان إبراهيم بن هرمة / ٢٠٨ وفيها تخريج الشعر.

١ – ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالثوب معصم[١]

أراد أن يصور حال المستنبح وما هو يعانيه من البرد والريح[٢]

٢ – عوىٰ في سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع نوم[٣]

وإنما قال: " أو ليفزع نوَّم " لأنهم إذا انتبهوا لصوته أجابوه أو تلقَّوه، أو رفعوا النار له، وذلك علىٰ حسب مكانه منهم في القرب والبُعْد البيتان تناولا المستنبح ووصفاه بعدة أمور قد بينت حاله :

وصف ما تفعل الريح الشديدة به وذلك في قوله : " تستكشط ، والتعبير بهذه الكلمة يشعر بأن الريح كانت شديدة لدرجة أن ثوبه من شدتها كان لاصقا بجسده، والريح تحاول أن تسلخه عنه كأن الثوب صار جلدًا له ، والتعبير بهذه الكلمة تصور أن الريح كانت تقصده وتحاول أن تنزع عنه ثوبه علىٰ حين أنه معتصم بالثوب، هذه صورة الريح وما تفعله بالمستنبح .

(١) تستكشط : كشط و استكشط بمعنىٰ، فهو كعجِب واستعجب، والكشط يقارب الكشف .. والمُعْصِم والمستعصم واحد، وهو المستمسك بالشيء .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي / ١٥٨٠ .

(٣) وقوله : " عوىٰ " أي نبح وصاح. وفي المثل السائر : " لولك عَوَيْتُ لم أَعْوِ". وأصله: المستنبح أجابه الذئب . ويقال: " فلانٌ ما يُعْوِي ولا يُنْبِح " إذا استضعِف . ويقال للداعي إلىٰ الفتنة: عَوَىٰ ، تشبيها له بالكلب وإزراءً به. فأما قولهم للحازم: " ما يُنْهَىٰ ولا يُعْوَىٰ " ، فالمعنىٰ : لا يُثْنَىٰ ولا يُردُّ .. والاعتساف: الأخذ في الطريق علىٰ غير هداية .

أن هذا العواء من المستنبح قد كان في سواد الليل بعدما أخذ صاحبنا الطريق علىٰ غير هدىٰ، فضل، فنبح ليجيبه كلب أو ليوقظ نومّا يهبون لنجدته.

٣- فجاوبه مستسمع الصوت للقرىٰ لـه مع إتيـان المهبين مطعم

٤- يكاد إذا ما أبصـر الصـيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم[1]

في هذين البيتين جواب " رب " المحذوفة، وفيها الحديث عن الكلب والاحتفال بوصفه يقول : إن الذي جاوبه عندما نبح (كلب) وكنىٰ عن الكلب بصفته:(مستسمع الصوت للقرىٰ) هذه كناية عن موصوف هو الكلب، إذ الكلب : يستسمع الصوت لكي يجيب من ينبح، لأن هذا الذي يجيبه وهو المستنبج عندما يأتي ويهب القوم لنجدته، فإن الكلب يظفر بما يحبه من مطعم، ولذلك صور الكلب بأنه من حبه للضيف يكاد يكلمه من حبه له مع عجمته، والغرض الكناية عن مدىٰ فرح الكلب بالضيف، وهذه بذاتها كناية عن كرم قوم هذا الكلب الذين ألفهم الضيفان حتىٰ أحبتهم كلابهم .

(١) يعني بمستسمع الصوت : الكلب . ويقال : استسمع بمعنىٰ سمع ، فهو كاستعجب وعجب . وإنما قال : " مع إتيان المهبين مطعم " لسعة عيش الكلب فيما ينحر للضيف . والمُهبُّون : الأضياف . ويقال : هب من منامه ، وأهببتُه . وقوله : " يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه " أي يكاد الكلب يكلم الضيف حبا له إذا أقبل ، علىٰ عجمته وانتصب " مقبلا " علىٰ الحال، والكلب مما يوصف به حبه للضيف . لذلك قال الآخر:

حبيب إلىٰ كلب الكريم مناخه بغيض إلىٰ الكوماء والكلب أبصر

٢ - وقال ابن هَرْمَة[١]

١- وَمُسْتَنبِحٍ نَبَّهْتُ كَلْبِي لِصَوْتِه وَقُلْتُ لَهُ: قُمْ فِي اليَفَاعِ فجَاوِبِ

٢- فجاءَ خَفِيَّ الصوتِ قد مَسَّهُ الضَّوىٰ بضَرْبَةِ مسنونِ الغِراريْنِ قاضِبِ

٣- فرحَّبت واستبشرت حتَّىٰ بسطتُه وتلك التي ألقىٰ بها كلَّ آئبِ[٢]

يقول : رب مستنبح ، لم يتنبه له الكلب لتأخر الوقت، وهجوم النوم وبرودة الجو فنبهت كلبي لصوته يجاوبه فيقصدنا ثم وصف هذا المستنبح بأنه خفيٰ الصوت، ولذلك لم يسمعه الكلب، قد مسه الضعف والهزال، وقمت إلىٰ الإبل جازرًا بضربة سيف قاطع، فرحبت بالضيف واستبشرت به حتىٰ بسطته بعد انقباض من الغربة وتوقع المخاوف وهذه عادتي مع كل قاصد وجاء إلينا.

تذوق الأبيات:

الإشارة إلىٰ تيقظه وترقبه لقدوم ضيف، ولذلك فقد تنبه لصوت المستنبح، مع خفاء صوته.. بيان العلاقة بينه وبين كلبه، وذلك بأن أمره بمجاوبة النابح في اليفاع؛ ولذلك لم يذكر إجابة الكلب له للإشارة إلىٰ أنه سارع إلىٰ الامتثال، ولذلك عطف البيت الثاني بالفاء : " فجاء خفيٰ الصوت " إيجاز التعبير عن حالة المستنبح بكلمة موجزة : " قد مسه الضَّوىٰ – وهو خفي الصوت " وبها نفهم منها حال المستنبح ذكر السيف بالكناية (مسنون

(١) كتاب الحيوان ١ / ٣٦٧ – الديوان قطعة (٢٧) صـ٦٤ .

(٢)اليفاع: المرتفع من الأرض، الضَّوىٰ : الضعف والهزال، الغراران شفرتا السيف، وكل شيء له حدٌّ فَحدُّه : غراره، قاضب : قضبه يقضبه ، من باب ضرب : قطعه، فقاضب أي : قاطع، تاج العروس (يقع + غرر– قضب)

الغرارين)كناية عن موصوف، ووصف السيف بالحدة، ثم تأكيد الوصف بقوله: " قاضب " للإشارة إلىٰ أنه متهيئ لنحر الجزر في أي وقت .

الحديث عن الترحاب والاستبشار بالضيف لكي يبسطه من انقباض به ثم الافتخار بأن هذا ديدنه مع كل راجع إليه .

٣- وقال ابن هرمة

١- أَنَا مَنْ عَلِمْتَ، إِذَا دُعيتُ لغَارةٍ ... في طَعْنِ أكبادٍ ، وضربِ رقَابِ

٢- وَإِذَا تَنَاوَحَتْ الشَّمَالُ بشَتْوَةٍ ... كَيفَ ارتقَابِي الضَّيْفَ في أَصْحَابِي

٣- وَإِذا تَنَوَّرَ طَارِقٌ مُسْتَنْبِحٌ ... نَبَحَتْ فَدَلَّتْهُ عَلَيَّ كِلاَبِي

٤- وَعَويْنَ يَسْتَعْجِلْنَهُ، فَلَقِينَهُ ... يَضْرِبْنَهُ بَشَراشِرِ الأَذْنَابِ

٥- عِرْفَانَ أَنِّي سوف أَضْربُ عَبْطَةً ... دَمْ بَكْرَةٍ، مَعْصُوبَةٍ أَوْ نَابِ

٦- فَتَكَادُ مِنْ عِرْفَانِ مَا قَد عُوِّدَت ... من ذَاكَ، أن يُفْصِحْنَ بالتَّرْحَابِ[1]

(١) ديوان إبراهيم بن هرمة قطعة (٢٧١) صـ٢٥٦ ؛ وقوله : " تناوحت " تناوحت الرياح إذا اشتد هبوبها .. والرياح إذا تقابلت في المهب تناوحت ؛ لأن بعضها يناوح بعضا، ويناسخ ، فكل ريح استطالت أثرًا ، فهبت عليه ريح طولا فهي نَيِّحتُه، فإن اعترضته فهي نسيجته . والرياح المتناوحة هيٰ النُّكب بعضها بعضا. وذلك في السنة ، وقلة الأندية ، ويبس الهواء ، وشدة البرد، وقوله : " تنور" تنورت النار ، أي نظرت إليها واستضأت بنورها . " بشراشر " شراشر الأذناب أطرافها .

توقعت من كلام ابن هرمة في القطعة الثانية: " نبهت كلبي لصوته " أنه يشير إلىٰ تيقظه وترقبه لقدوم الضيف . وإذا به يصرح بهذه الإشارة صراحة في هذه القطعة الثالثة وذلك في قوله :

٢- وَإِذَا تَنَاوَحَتْ الشَّمَالُ بِشَتْوَةٍ كَيفَ ارتقَابِي الضَّيْفَ فِي أَصْحَابِي

الحديد في هذه القطعة أن الكلام عن المستنبح جاء في سياق من يخاطبه مفتخرًا قائلاً له : أنا من علمت ماذا أكون في الأوقات التالية: وقت الغارة والحرب، ووقت السنة والجدب عند تناوح الرياح، وعند قدوم المستنبح . مستشهدًا بعلمه به . التقديم للحديث عن المستنبح بالكناية عن وقت الجدب بقوله: " وإذا تناوحت .." عدم وصف حال المستنبح سوىٰ أنه تَنَوَّرَ ناره من بعيد.

ثم إعادة التعبير عن فرح الكلاب بالضيف وهي كناية عن كرمه مع اختلاف التعبير عما مضىٰ، فهناك عبر في القطعة الأولىٰ بقوله:

يكاد إذا ما أبصر الصيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم

وهنا قد عبر عن فرحة الكلب بالضيف بإبراز وإظهار حركته مع الضيف وكان هذا البيت :

٤- وَعَوِيْنَ يَسْتَعْجِلْنَهُ، فَلَقِينَهُ يَضْرِبْنَهُ بَشَراشِرِ الأَذْنَابِ

يشرح كيف كاد الكلب أن يكلمه من حبه وهو أعجم .

الخاتمة

ظلت صورة المستنبح تتنامىٰ في البيان العربي من الجاهلية إلىٰ الإسلام فبدأ الحديث عن المستنبح في بيتين وانتهىٰ إلىٰ أن صار قصيدة كاملة كما رأينا عند الفرزدق وغيره – وقد وصل البحث إلي :

١- بداية الحديث عن المستنبح كان موجزًا.

٢- كان في الجاهلية الحديث عنه من أول القصيدة .

٣- بعد ذلك كان يأتي بعد افتتاحية القصيدة بالغزل والحديث عن الحبيب ثم ذكر من يلوم الشاعر في الإنفاق .

٤- التعبير عن الأجواء المحيطة بالمستنبح بطريق الكناية .

٥- تفريع الحديث عن وصف المستنبح .

٦- تفريع الحديث عن ما يختار من القرىٰ من الإبل .

٧- تفريع الحديث عن القدر وصفاتها، ونار دليل الضالين، والحديث عن فرح الكلب بالضيف .

٨- توظيف الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية في وصف المستنبح والأجواء المحيطة به وفرحة الكلب بالضيوف .

هذا والحمد لله أولا وأخرًا – وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

١- كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، للخالدين أبي بكر محمد (ت ٣٨٠ه)ـــ، وأبىٰ عثمان سعيد(ت ٣٩٠ – ٣٩١هـ) ابنىٰ هاشم، حققه وعلق عليه الدكتور السيد محمد يوسف، طبعة مصورة في سلسلة الذخائر العدد ٨١ قدم لها أ. د/ سيد حنفىٰ حسنين سنة ٢٠٠٢م .

٢- الأغاني / أبو الفرج الأصبهاني علىٰ بن الحسن بن محمد القرش ٢٨٤ – ٣٥٦هـ – تحقيق إبراهيم الإبياري ١٣٩٤ – ١٩٧٤م – دار الشعب .

٣- أمالي المرتضىٰ(غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف المرتضىٰ علىٰ بن الحسين الموسوىٰ العلوىٰ (٣٥٥- ٤٣٦ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٥٤م – عيسىٰ الحلبىٰ .

٤- تاج العروس : محمد بن محمد أبو الفيض مرتضىٰ الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ ، المحقق مجموعة، دار الهداية .

٥- الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة : محمد بن أبي بكر التلمساني ت بعد ٦٤٥ هـ نقحها وعلق عليها د. محمد التونجي الأستاذ بجامعة حلب. دار الرفاعي للنشر – الرياض – الطبعة الأولىٰ ١٩٨٣م .

٦- الحماسة البصرية، صدر الدين علىٰ بن أبىٰ الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق وشرح دراسة د/ عادل سليمان جمال، الخانجي – الطبعة الأولىٰ ١٩٩٩م .

٧- كتاب الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون الطبعة الثانية – مصطفىٰ البابي الحلبي.

٨- خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبو بكر بن علىٰ بن عبد الله الحمدي ابن حجة (ت ٨٣٧هـ)، المحقق : عصام شقيو ، دار الهلال – بيروت – دار البحار – بيروت – الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م .

٩- ديوان إبراهيم بن هرمة تحقيق محمد جبار المعيبد – دار الأندلس – بغداد ١٩٦٩م .

١٠- ديوان الفرزدق : قدم له وشرحه : مجيد طراد – دار الكتاب العربي – الطبعة الثانية سنة ١٩٩٤م .

١١- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للإمام المحدث عبد الرحمن السهيلي(٥٠٨ – ٥٨١هـ) ومعه السيرة النبوية لابن هشام(ت ٢١٨م) تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الإسلامية – القاهرة .

١٢- السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها مصطفىٰ السقا – إبراهيم الإبياري – عبد الحفيظ شلبي، مصطفىٰ الحلبي .

١٣- سيرة النبي – صلىٰ الله عليه وسلم، لأبي محمد عبد الملك بن هشام راجع أصولها، وضبط غريبها وعلق حواشيها، وضع فهارسها محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرىٰ – ١٩٣٧م .

١٤- شرح أشعار الهذليين: صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري حققه عبد الستار أحمد فراج راجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة ١٩٦٥.

١٥- شرح ديوان الحماسة: يحيي بن علىٰ بن محمد الشيباني التبريزي أبو زكريا (ت ٥٠٢هـ) .

١٦- شـرح ديوان الفرزدق، عبد الله الصـاوي، المكتبة التجارية الكبرىٰ دون تاريخ .

١٧- شـرح المفضـليات، أبو زكريا يحيي بن علىٰ التبريزي ت ٥٠٢هـ، تحقيق علىٰ محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر .

١٨- شـعر الأخطل، صـنعة السـكري، تحقيق د/ فخر الدين قباوة، الطبعة الرابعة، دمشق، دار الفكر سنة ١٩٩٦م .

١٩- الشـعر والشـعراء : أبو محمد عبد الله بن مسـلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦هـ – دار الحديث – القاهرة – ١٤٢٣هـ .

٢٠- عيون الأخبار : أبو محمد عبد الله بن مسـلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦هـ – الطبعة الأولىٰ – مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٠م .

٢١- معـاهـد التنصـيص علىٰ شـواهـد التلخيص: عبـد الرحيم بن عبـد الرحمن،أبو الفتح العباسي ت ٩٦٣هـ – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – عالم الكتب – بيروت .

٢٢- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب) : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ت ٦٢٦هـ تحقيق إحسان عباس . دار الغرب الإسلامي – بيروت – الطبعة الأولىٰ سنة ١٩٩٣م .

٢٣- معجم الشـعراء للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسـىٰ تحقيق عبد الستار أحمد فراج .

٢٤- المفضـليات تحقيق وشـرح أحمد محمد شـاكر – عبد السـلام محمد هارون الطبعة السادسة – دار المعارف .